

النفحات الوردية
في
حلّ ألفاظ قصيدة الزينية

تأليف
عبدالمعطي بن سالم بن عمر الشلبي، السملوى
ت 1127هـ

تحقيق
الدكتور
جميل عبد الله عويضة

1432هـ / 2012م

المؤلف والقصيدة

أ - المؤلف¹

السملاني (000 - 1127 هـ = 000 - 1715 م)

عبد المعطي بن سالم بن عمر الشبلي السملاني ، القادري ، الازهري ، المصري ، الشافعي .

- أديب ، محدث ، فقيه ، اصولي ، متكلم ، نسبته إلى سملاني (بمصر) له كتب ، منها :
- إحكام القول في حل مسائل العول .
- إتحاف الكيس بنوادر مصطلح الحديث - ويسمى أيضا: إتحاف الظريف بشرح قواعد مصطلح الحديث الشريف .
- الاستئناس في تأويل منام الناس .
- افادة الاصحاب والخلان بشرح شعب الايمان .
- اقتطاف الزهر من جوانب أشجار النهر - فتاوى .
- ترغيب المشتاق في أحكام الطلاق - على مذهب الإمام الشافعي .
- تفريح الكرب والمهمات بشرح دلائل الخيرات .
- تنزية النواظر في مآثر سيد الاوائل والاواخر .
- روائح العواطر بما يشرح الخواطر .
- كشف الاسرار المحررة الكامنة في الفاظ الجوهرة - شرح جوهرة التوحيد .
- فرج المحصلين بمسائل عقد النكاح وحل اليمين .
- لقط المسائل الفقهية .
- المربع في حكم العقد على المذهب الاربع .
- منبهة المفتين لرد جواب السائلين .

¹ الأعلام ، للزركلي 4 / 155 ، والخزانة التيمورية 2 / 5 ، 3 / 142 ، و تاريخ الأدب العربي ، لبروكلمان 2 / 420 ، 444 ، وهدية العارفين ، للبغدادي 1 / 622 وانفرد بتاريخ وفاته ، ومعجم المطبوعات ، لسركيس 1050 ، 1051 ، والكشاف ، لطلس 254 ، وفهرس الازهرية 2 / 205 ، 474 ، 591 ، 614 ، 718 ، وفهرس دار الكتب المصرية 1 / 30 ، 498 ، 538 ، 3 : 39 ، 66 ، 7 / 205 ، وايضاح المكنون ، للبغدادي 1 / 36 ، 106 ، 111 ، 134 ، 201 ، 283 ، 300 ، 301 ، 476 ، 2 : 210 ، 260 ، 356

- النفحات الوردية في حلّ ألفاظ قصيدة الزينية . ذكره الزركلي باسم : البهجة السنية في شرح القصيدة الزينية ، وقال : عندي مخطوطة من شرحه للقصيدة الزينية ، جاء في مقدمتها أنه بدأ بتأليفه في ثاني ليلة من شهر ذي القعدة سنة 1087هـ ، وسماه " النفحة الوردية في شرح القصيدة الزينية " .
- وسيلة المرید لبيان التجويد .
- وله مجموعة فتاوى ورسائل ونظم

ب — القصيدة

اختلف المؤرخون في قائل القصيدة الزينية ، فمنهم من نسبها إلى الإمام علي بن ابي طالب ، كرم الله وجهه ، الذي مات سنة أربعين من الهجرة ، ومنهم من نسبها الى الشاعر المجيد صالح بن عبد القدوس بن عبد الله ، الحكيم ، الأديب ، الذي عاش في العصر

العباسي ، والذي كان يجلس للوعظ في مسجد البصرة ، وله أخبار يطول ذكرها ، وقد اتهم بالزندقة ، فقتله المهدي بيده ، ضربه بالسيف ، فشطره شطرين ، وعُلّق بضعة أيام للناس ثم دُفن¹ .

والذين ينسبون لها لابن عبد القدوس دليلهم ذكر أشعب في القصيدة ، في قوله :
وَإِذَا طَمِعْتَ كُسَيْتَ ثَوْبَ مَذْلَةٍ فَلَقَدْ كُسي ثَوْبَ الْمَذْلَةِ أَشْعَبُ
وقد عاش أشعب في العصر العباسي ، وفي الوقت نفسه ، الذي عاش فيه ابن عبد القدوس ، وأشعب هذا شخصية حقيقية لها وجود ، وهو مشهور بالطمع ، وقد ترجم له الخطيب البغدادي² في تاريخ بغداد ، والذهبي في السير ، وغيرهما . وقد أشار الذهبي إلى أن هناك ما هو كذب فيما ينسب إليه من قصص ، وقد مات أشعب الطمّاع سنة أربع و خمسين و مائة من الهجرة !!

والبعض يقول إنّها لعلي الرضى المتوفى سنة 203 هـ ، وقد قال الشارح في نهاية الشرح :
وشاع عند العامة أنّها لعلي بن أبي طالب ، ويُحتمل أنه قالها نثرا ، ونظمها غيره ، ونسبها إليه ، لكونه دلّ عليها أولاً .

وهذه القصيدة تعتبر من روائع الشعر العربي ؛ لجزالة عباراتها ، ونفاسة حكمها ، وفوائد نصائحها ، وقد صيغت بأسلوب أدبي شعري بليغ ، وزينب هنا كناية عن الدنيا .

النسخة المعتمدة في التحقيق :

اعتمدنا في التحقيق على نسخة مصورة من جامعة الملك سعود ، بالرياض — المملكة العربية السعودية ، رقمها (2690) ، وعدد صفحاتها (131) صفحة ، وفي كل صفحة (21) سطرا ، قياسها (14,5×21,5سم) ، وهي نسخة جيدة ، خطها نسخ معتاد ، وقد كتب المتن بالحمرة ، كتبت في القرن الثالث عشر الهجري تقديرا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

¹ معجم الأدباء ياقوت الحموي الصفحة 12/6 – 10

² تاريخ بغداد 9/303 – 305(4844) .

الحمد لله الذي خلق الإنسان ، وكمّله بالعقل ، وأوجب عليه النصح للخلق بصريح النقل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أدّخرها عنده إلى يوم النقل ، وبعد ، ، ،

فيقول العبد الفقير ، الراجي إلى عفو مولاه الباري ، عبد المعطي ابن عمر الشبلي السملائي : حصل لي في ثاني ليلة من شهر القعدة المحرم ، الذي هو من شهور سنة ألف وسبعة وثمانين قلماً وسهراً ، فتفكرت في قصيدة الزينية المنسوبة للإمام الأعظم ، بحر العلوم ، المنطوق فيها والمفهوم ، الصوّام القائم بالليل والناس نيام ، زوج البتول ، وابن عم الرسول ، وسيف الله المسلول ، علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، ثم عهدت إلى صبيحة الليلة المذكورة إلى حلّ ألفاظ تلك الحروف المستورة ، الصادرة عن الأخلاق المرضية ، والأنفاس الإلهية ، مع إقامة العذر ، وتشيتت البال ، وهجوم الأمراض الجسمانية والمعنوية ، وتوالي الفهوم ، وتراكم الهموم ، فحليتها حلاً لطيفاً ، يبين منها — إن شاء الله — المراد الأصلي بحسب الطاقة ، فإني الآن في مرتبة العجز والفاقة عن الوصول إلى الاطراد ؛ ابتداراً لمعانيها ، وإن حصل شيء من ذلك فلا أعدّه إلا من أنفاس مُنشئها ؛ لأنها حوت مع صغر حجمها ، وغزارة علمها من المواعظ والآداب ، ما لا يُحيط به كتاب ، ومن الخاسن والحكم ما لا يضبطه قلم ، ومن الشواهد والأمثلة ما لا يخطر ببال ، ومن الفنون [3] والعلوم ما تكلّ عنه الفهوم ، وكنت ممن اطلع عليها مراراً عديدة ، وفي كل حين ، يظهر لي فيها فوائد جليلة ، ولم يبلغني أن أحداً فضّ ختامها قبل ، ولا حسر حاسر لثامها ، وكلما أراد أحد أن يدنو منها استعصمت ، وامتنعت ، وكلّ من حدثته نفسه أن يمدّ يده إليها تباعدت عنه ، وارتفعت ، فأردت أن أكتب عليها ، فعدت لما رأيتني منهمكا ، فوقفت عمّا كنت رمته بسبب ذلك السماع ، فاستخرت الله الذي لا خاب من استخاره في تلخيص شرح لطيف ، ومنهاج طريق يُسرّ به الناظر ، وينشرح به الخاطر ، يحل بعض ألفاظها ، ويجل حفاظها ، وإن لم أكن من فرسان هذا الميدان ؛ مُستعينا بالملك الديّان ، والفقير مُعترف بقصر الباع ، مُعترف من بحر غيره للانتفاع ، مُقرّ بقصر عباراته وحجّاه ، وسماعك بالمُعيدي خير من أن تراه ، وهذا المؤلّف في حقيقة ، لا بدّ أن يقع لرجلين ، إمّا عالم مُحبّ مُنصف ، فيدعّ له بالحسنى ، ويدفع بالتي هي أحسن بما هو من صفته ، وإمّا جاهل مُبغض متعسّف ، فلا اعتبار بموافقة ، ولا بمخالفته ، وإنما الاعتبار بموافقة المحب المنصف ، لا المبغض المتعسّف ، كما قال بعضهم في معنى ذلك ، بيت شعر :

إِذَا رَضِيتَ عَنِّي كِرَامُ عَشِيرَتِي فَلَا زَالَ غَضَبَانَا عَلَيَّ لِثَامُهَا¹

¹ البيت من الطويل ، لأبي العيناء (191 - 283 هـ) : محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمي ولاء. أديب فصيح من الظرفاء ، ومن أسرع الناس جواباً اشتهر بنوادره ولطائفه ، وكان ذكياً جداً ، حسن الشعر ،

فإن الله ، الله في الاعتذار ، وترك الإنكار ، كما ورد في الأحاديث والآثار : [احمل أخاك على سبعين محملا من العذر ، فإن أعياك الأمر فاقم نفسك]¹ ، وسميته بـ النفحات الوردية في حل [4] ألفاظ قصيدة الزينية ، واعتمدت في شرح هذه القصيدة على كتب المتقدمين والمتأخرين ، وغير ذلك من التدقيقات والتحقيقات عن بعض مشايخي ، فمن الكتب : الكشف للجلال السيوطي ، وكتاب الجامع الصغير ، وكتاب الصرف الندي في شرح قصيدة ابن الوردي ، وكتاب بهجة الناظرين ، وكتاب الدر المنضود في الصلاة على صاحب المقام محمود لابن حجر ، وكتاب الفتح المبين له أيضا ، وكتاب الفتاوي الحديثية ، له أيضا ، وكتاب خواص البسملة ، للبويني ، وكتاب القاموس ، وكتاب الصبح ، وكتاب روض القلوب للشبراوي ، وكتاب مختصر الزواجر للهيثمي ، وكتاب شرح تائية السبكي ، وكتاب الدر المنثور ، للسيوطي ، وكتاب زهرة الرياض ، وتوفقة القلوب الراضية ، للصفاقسي ، وكتاب النكاح ، وكتاب البيضاوي ، وكتاب الجلالين ، وكتاب خريدة العجائب ، لابن الوردي ، وكتاب طبقات المناوي ، وكتاب الإمعان للسيوطي ، وكتاب إرشاد الطلاب في لفظ الإعراب للغنيمي ، وكتاب الدرة الفاخرة ، له أيضا ، وكتاب أننى الطالب ، لابن حجر ، وشرح العقيدة الكبرى لسيدى إبراهيم اللقاني ، وكتاب شرح العقيدة لولده عبد السلام ، وكتاب فتح الرحمن للطحيني ، وكتاب تنبيه المغترين ، وكتاب ابن شاهين في تفسير الرؤيا ، وكتاب سيدي الشنشوري ، وكتاب القفل المستور في جواز أخذ العلوم من غير حضور ، للسيوطي ، وكتاب الخصائص للحضري ، وكتاب النجوم الزاهرة في أخبار [5] الأمم الدائرة ، وكتاب الجواهر المنظوم ، وكتاب أنس المنقطعين ، وكتاب العجماء المالكى² ، وكتاب الفيشي³ ، وكتاب معادن الجواهر في تصدّر الذكر والذاكر ، وكتاب سيدي علي وفا ، وكتاب سهام الإصابة في الدعوات المستجابة ، وكتاب اليواقيت والجواهر ، للشعراني ، وكتاب عمدة الطالب ، وكتاب أدب الدنيا والدين ، وكتاب العقدين ، للسهمودي ، وكتاب بلوغ المآرب في أخبار العقارب ، للسيوطي ، وكتاب لامية ابن الوردي ، وكتاب الصواعق المحرقة ، لابن حجر ، وكتاب الخازن ، وكتاب مطالع الأنوار ، وكتاب المناوي الكبير ، وكتاي شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل ،

ملح الكتابة، خبيث اللسان في سب الناس والتعريض بهم. كف بصره بعد بلوغه أربعين سنة من عمره. أصله من اليمامة ، ومولده بالأهواز ، ومنشؤه ووفاته في البصرة. قال المتوكل: لولا أنه ضرير لنادمته ، فنقل إليه ذلك فقال: إن أعفاني من رؤية الأهلّة فإني أصلح للمنادمة. والبيت في ديوانه - قرص الموسوعة الشعرية .

¹ قيل إنه لعلي بن أبي طالب ، ولم أقف عليه في كتب الحديث المعتمدة .

² كتابه هو : القول المعتمد في حل ألفاظ المختصر - في الفقه ، وهو : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمر العجماء .

³ العلامة محمد الفيشي ، ت : 972 ، له كتاب : المنح الإلهية ، شرح المقدمة العشماوية .

وكتاب مقدمة الكبرى ، وكتاب كف الرّاع فيما يحرم باللّهُو والسماع ، لابن حجر ، وكتاب محمد بن إبراهيم الخازني ، وكتاب البدور السافرة ، للسيوطي ، وكتاب فضائل عاشوراء للأجهوري ، وكتاب حياة الحيوان ، وكتاب بدء الأمالي لابن جماعة ، وكتاب مقدمة ابن اللباب ، وكتاب حصول الرفق بأصول الرزق ، للسيوطي ، وكتاب مولد النبي صلى الله عليه وسلم لابن حجر ، وكتاب الحجب المسلمانية ، وكتاب الشافعي ، للشاطبي ، وكتاب ابن قاسم العبادي على متن الغاية¹ ، وكتاب دلائل الخيرات للجزولي ، وكتاب فتح العقود ، للسبكي ، وحواشي الأجهوري على المواهب ، وحواشي البرماوي ، وتاريخ الإسماعيلي ، وتاريخ حلب ، لابن الملا ، وشرح دلائل الخيرات ، وكتاب وشاح للسيوطي ، وكتاب نور العيون ، وكتاب حادي قلوب الأبرار إلى دار القرار [6] لابن الجوزي ، وشرح كتاب الهمزية ، وغير ذلك من الكتب المطوّلة والمقصّرة .

وكان سبب جمعي الكتابة على هذه المنظومة ترك السوء ، والاشتغال بالمطالعة ، والله سبحانه وتعالى يعلم ما قصدته ، وما جمعته ، وألّفته ، وما أردته ، فهو عند كل لسان عبد وقلبه ، وهو المطلّع على نيّته وكسبه ، وتمثله فيما قال بعض العارفين في هذا المعنى ، بيت شعر :

اجعل جليسك مجموعاً تطالعه تستفيد من الآداب والحكم
واترك مجالس اقوام تجالسهم فتكسب الإثم من سمع ومن كلم .

وقال آخر :

انظر إلى حُسن مجموعي ترعجبا بما قد غدا مفردا في الفضل والأدب
لقد حوى در ألفاظ منظمة نظم الجمان على سلك من الذهب

وهذا المجموع مشتمل على لطائف مستوفاة ، وفنون مُبرّآت ، فيه من كل أمر غريب من عجائب ، وغرائب ، وحكايات ، وسير ، وأمثال وعبر ، ومراسلات ، وأشعار ، وتغزّلات ، ونوادر مُضحكات ، فيا أيها المطلّع على هذا الشرح ، لك غنمت ، وعلى ما ألفه غرمت ، وهذه بضاعة تُعرض عليك ، وبنات أبكار زُفّت إليك ، فما كان من صواب فمن الواحد المنان ، وما كان من خطأ فمني ، ومن الشيطان ، فنسأل الله أن يلحظه بعين القبول ، وأن يبلغني وإخواني بسببه أعظم المأمول ، إنه بكل خير كفيل ، وهو حسبي ونعم [7] الوكيل .

¹ هو : أحمد بن القاسم العبادي المتوفي سنة (994 هـ) اسم كتابه : فتح الغفار بكشف مخبّات غاية الاختصار

ومتن (الغاية والتقريب) في الفقه الشافعي للإمام العلامة أبي شجاع أحمد ابن الحسين الأصفهاني الشافعي المتوفي سنة 593 هجرية

قال المؤلف ، رحمه الله تعالى : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، ابتداءً بالبسملة الكريمة ؛ اقتداءً بالكتاب العزيز العظيم ، وعملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم : [كل أمر ذي بال لا يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم ، فهو أقطع]¹ ، وفي رواية : [فَهُوَ أَبْتَر]² ، وفي رواية : [فهو أجذم]³ ، أي ناقص ، وقليل البركة .

تنبيه :

قيل : إن الله سبحانه وتعالى لمَّا أنزل بسم الله الرحمن الرحيم ، اهتزت الجبال الراسيات ، وتزلزلت لها الأرض والسموات ، وازدادت الملائكة إيماناً ، والمخلوقا يقيناً ، وخرت الجن على وجوههم ، وتحركت الأفلاك ، وذلت لعظمتها الأملاك ، وكانت مكتوبة في جبين آدم عليه السلام ، قبل أن يُخلق بخمسائة عام .

روي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال : مَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنَ الزَّبَانَةِ التَّسْعَةِ عَشَرَ ، فَلْيَقُلْ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [فَإِنَّهَا تِسْعَةُ عَشَرَ حَرْفًا] ، يَجْعَلُ اللَّهُ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهَا جَنَّةً مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ⁴ .

وروي أن رجلاً أرسل إلى عمر بن الخطاب ، رضي الله تعالى عنه أن يبي صداعاً ، لا يسكن أبداً ، فابعث إليّ دواءً ، فبعث صحيفةً ، فكان إذا وضعها على رأسه سكن صداعه ، وإذا رفعها ، عاد إليه الصداع ، ففتحتها يوماً ، فإذا فيها : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .
واعلم أنه لمَّا كانت النساء هنَّ⁵ أصل كل فتنة ، وسبب كل داء ومحنة ، وجرت عادة الشعراء أنهم إذا أرادوا أمراً مُهماً تغزّلوا بذكر ليلى ، ونحوها ، جرّد المصنف⁶ ، رحمه الله تعالى من نفسه شخصاً ، وخاطبه متغزلاً بذلك [8] زينب ، يشكو حاله ، وما جرى له معها ، وأقام قلبه مقام الشخص المخاكب ، ثم وجّه إليه الخطاب ، وقوم إليه سهم العقاب ، فقال :

صَرَمَتْ جِبَالُكَ بَعْدَ وَصْلِكَ زَيْنَبُ وَالْدَهْرُ فِيهِ تَصَرُّمٌ وَتَقَلُّبُ

¹ هذا الخبر ضعيف بالاتفاق وقد رواه الخطيب في الجامع والسبكي في طبقات الشافعية وفي إسناده ابن الجندي وهو ضعيف الحديث ، وفي الخبر اضطراب أيضاً . والمحفوظ في هذا الخبر حديث : (كل أمر ذي بال لا يبدأ بالحمد) . على إرساله وهو المحفوظ ، أما الأول فهو منكرٌ جداً ولا يصح .
² [كل كلام لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أبتر] البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير ، لابن الملقن : سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري 7/530
³ [كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أجذم] البدر المنير 2/92
⁴ لوامع الأنوار البهية ، وسواطع الأسرار الأثرية ، لمحمد السفاريني الحنبلي ، ص 9 ، وقد أورد الشارح في هذا الأثر حذف ، وتبديل ، فوضعنا المحذوف بين معقوفتين ، وأصلحنا ما فيه من تغيير على حسب المصدر . ومن عادة الشارح في هذا الشرح التغيير والتبديل والحذف والتحريف ، سواء كان ذلك في الأحاديث أو في الشعر المُستشهد به ، وسنثبت ما فيه مثل ذلك على حسب الأصول التي تحوي هذه النصوص .
⁵ كتب : هم
⁶ يعني : الشاعر

اعلم وفقني الله وإياك لما يُرضيه أن هذه القصيدة من البحر الكامل ، فقوله : صرمت : أي قطعت ، من باب المقابلة ، قال في القاموس¹ : صرم الشيء : قطعه ، وقوله : حبالك : أي مقابلتك ، وقوله : بعد وصلك زينب : اسم المرأة .

تنبيه :

مدح بعضهم التغزل ، وبعضهم ذمه ، وقد نُقل عن كثير من الناس أنه مات بالتغزل ، ومنهم من مات بالسماع ، كما هو مشهور ، قال جعفر بن الزبير : كنت يوما في مجلس عروة بن الزبير ، وعنده رجل من بني عُذرة ، فقال : يا عُذري² ! بلغني أن فيكم رقّة وتغزلا ، فلو حدثني ببعض ذلك ، فقال العذري : والله يا عروة ! لقد خلّفت في الحيّ أكثر من أربعين مريضا ، ما منهم من رُجيّ برؤه ، وما بهم داء إلاّ الحب فقط ، خامر قلوبهم ، وخالط أجسادهم ، فهم على شفا جرفٍ هارٍ من الموت .

وللأكابر تغزلات كثيرة دقيقة رقيقة بديعة ، فمنهم من تغزل في الديار المكية ، كالكعبة المشرفة ، والصفاء والمروة ، والحجر والحطيم ، ونحو ذلك ، ومنهم من تغزل بالطلول³ والربوع والديار ، والمراد بذلك أصحابها [9] ، ومنهم من تغزل بذكر ليلي وسلمى والرباب وزينب ، وما أشبه ذلك من نواذر الشعراء ، وكذا يتغزلون بذكر هند وسعاد وعزة ، ونحو ذلك ، وقد أنشد كعب بن زهير النبي صلى الله عليه وسلم :

بأنت سعادُ فقلبي اليوم متبولٌ⁴

وفيها من الأشعار كل بديع ، هذا والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع ذلك ، ولا يُنكر منها شيئا ، ثم أشار المصنف رحمه الله تعالى في هذا المعنى بقوله : والدهرُ فيه تصرُّمٌ وتقلُّبٌ : أي تعجب وتسليّة من حبّ زينب لما قطعت وصله ، والدهر يُطلق على الزمان وتقلبه ، أي خفضه ورفع له لأهله ، كما قال بعضهم في معنى هذا الدهر شعرا :

اني تأملت الزمان وفعله	فوجدته في فعله كالمنخل
يعلو النخل على الدقيق سفاهة	ويحط لب لبابه من أسفل
كطبيعة الميزان في أفعاله	يضع الرواجح والنواقص تنعلي
ولقد عجت من الزمان وفعله	في خفض ذي شرف ورفع الأرذل

¹ القاموس المحيط ، لمجد الدين الفيروزآبادي (صرم) .

² كتب : يا عذاري

³ كتب : بالطلوع

⁴ صدر بيت من البسيط ، وعجزه :

متيّم إثرها لم يُجرَ مكبولٌ

..... ديوان كعب / الموسوعة الشعرية .

وسياقي الكلام على ذلك في محله ، ثم أشار المصنف — رحمه الله — بقوله :

نَشَرَتْ ذَاوِبَهَا الَّتِي تَزْهُو بِهَا سُوداً وَرَأْسُكَ كَالثَّغَامَةِ أَشِيبُ

قوله : نشرت : أي أرخت ، وقوله : ذوايبها : أي شعرها ، قال الجوهري¹ : الذُّوَابَةُ من الشعر والجمع الذوائب ، وقوله : تزهو بها : أي تعجب بها ، وقولها : سودا ، أي كالليل الحالك ، الشديد السواد .

تنبيه :

سواد الشعر [10] من أعظم محاسن المرأة ، فتعجب به خصوصا إذا اجتمعت فيها كل الخاسن ، كما قال بعضهم ، ومن محاسن المرأة : اتساع في طول عينيها ، وضيق العين من المرأة من العيوب ، وإنما يُستحب الضيق منها في أربع : فَمُها ، وأنفها ، وأذنها ، وما هناك² ، ويُستحب السعة منها في أربعة³ مواضع : وجهها ، وصدرها ، وكفّ لها ، وهو ما بين كتفيها ، وجبهتها ، ويُستحب البياض منها في أربع : خدها ، وفرقها ، وشفرها ، وبياض جبينها ، ويُستحب السواد منها في أربع : عينيها ، وحاجبيها ، وهدب عينيها ، وشعرها ، ويُستحب الطول منها في أربع : قوائمها ، وعنقها ، وبنانها ، ونحل خصرها ، ويُستحب القصر في أربع : لسانها ، ويديها ، ورجليها ، وعينيها ، فتكون قاصرة الطرف ، أي قاصرة النظر واللسان عن كثرة الكلام ، وكثرة النظر إلى غير زوجها ، وقصر رجلها عن الخروج من غير إذن زوجها ، وقصر يدها عن تناول ما يكرهه الرجل ، ويُستحب الدقة منها في أربع : خصرها ، وقدمها ، وحاجبيها ، وأنفها ، فمتى اجتمعت فيها هذه الأوصاف كانت أحق بالعجب ، انتهى ، قاموس⁴ . قوله : ورأسك كالثغامة ، الثَّغَام كالسحاب ، نبت أبيض ، أنعم الوادي ، أي أنبت ، والثغامة : البومة ، وقوله : أشيب ، صفة للرأس ، ولما رأت زينب بياض شعره وشيخوخته نفرت منه ، كما قال المؤلف ، رحمه الله تعالى :

[11] وَاسْتَنْفَرَتْ لَمَّا رَأَتْكَ وَطَالَمَا كَانَتْ تَحْنُ إِلَى لُقَاكَ وَتَرْغَبُ

قوله : واستنفرَتْ لَمَّا رَأَتْكَ ، أي لما نظرتك شيخا كبير السن ، رقيق العظم ، كما حُكي أنه كان لأبي مسلم الخولاني جارية ، وكانت تسقيه السم ، لأنها كانت تبغضه من كبره ، وكان لا يعمل فيه السم شيئا ، فلمّا طال ذلك قالت له الجارية : إلى كم أسقيك السم زمانا طويلا ، وهو لا يعمل فيك شيئا ؟ فقال لها : لماذا ؟ قالت : لأنك صرت شيخا كبيرا ، فعتقتها ، وقال :

¹ الصحاح (ذاب)

² أراد مكان الحشمة منها .

³ كتب : أربع .

⁴ أي كما هو في القاموس المحيط ، يضع الشارح في بعض المواضع ، في نهاية الكلام ، اسم المرجع ، فليعلم .

إني أقول عند الأكل والشرب : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فلم يضربني شيء ، انتهى ، من زهرة الرياض ونزهة القلوب الرياض .

وقد حكى أن الرجال عند النساء على ثلاثة أقسام :

الأول : الاتفاق على محبة الأُمرد .

والثاني : الاختلاف في أسود الذقن .

الثالث : الاتفاق على بغض الشايب . انتهى .

وقول المؤلف : وَطَالَمَا كَانَتْ تَحْنُ إِلَى لِقَاكَ وَتَرْغَبُ ، أي كانت تحن إليك ، وأنت في حال الشباب والصحة ، وترغب فيك ، وأنت متّصف بصفات الكمال ، معتدل القوام ، ولمّا علمت الغانيات أن زينب قطعت وصلك ، أطمعنك بوصلهن أيضا ، وقطعن أيضا ، كما قال المؤلف رحمه الله تعالى :

وَكَذَاكَ وَصَلُ الْغَانِيَاتِ لِأَنَّهُ أَلْ بِلَقَعَةٍ وَبَرَقَ خُلْبُ

قوله : الغانيات ، جمع ، ومفرده غانية ، مُغْنِيَةٌ كانت أو غيرها ، والمراد بها اللطيفة الذات ، البديعة الصفات [12] البارة في اللطف والجمال ، الكاملة في الحسن والكمال ، في الأقوال والأفعال ، مُغْنِيَةٌ كانت أو غيرها ، قال في المصباح والغانية¹ : هي الأُمةُ البَيضاءُ هَكَذَا قَيِّدُهُ ابْنُ السَّكَيْتِ ، مُغْنِيَةٌ كَانَتْ أَوْ غَيْرَ مُغْنِيَةٍ ، وَقِيلَ تَخْتَصُّ بِالْمُغْنِيَةِ .
وبعض الناس يظن أن الغانية هي المغنية خاصة ، وليس كذلك .

تنبيه :

يحرم سماع الغناء من حرّة ، أو أمة ، أو أجنبية ؛ بناء على قول عندنا : إن صوت المرأة عورة ، سواء خاف منها فتنة أم لا ، وكلام الشيخين في الروضة ، وأصلها ثلاثة مواضع ، يقتضي أن هذا هو الراجح في المذهب ، ونقله القاضي أبو الطيب ، فنهى أصحابنا عن الغناء ولو من وراء حجاب ، وصرّح بالتحريم القاضي حسين أيضا ، وادّعى أنه لا خلاف فيه ؛ مستدلا بالحديث الصحيح : [مَنْ اسْتَمَعَ الْغِنَاءَ ، فَيَصُبُّ فِي أُذُنَيْهِ الْأَنْكُ]² أي الرصاص المذاب ، ولو لم تكن المغنية والمغني محلا للفتنة ، ولكن استماع الغناء منه يبعث إلى الافتتان بغيره من الناس ، فهو حرام لما فيه من الحث ، ومن يشغل بصورة خاصة ، وهذا واضح لا مقارعة فيه ، وأمّا على أن صوته ليس بعورة ، وهو الأصح ، فلا يحرم ، إلّا إن خشي فتنة ، ثم رأيت الرافي صرح

¹ لم يقل في المصباح المنير الغانية ، وإنما قال : الْقَيْنَةُ . انظر : الفيومي ، المصباح المنير (ق ي ن) . وهذا من الدلائل على جرأة الشارح على التحريف والتصحيف .

² لم أجده بهذا اللفظ ، والذي وثقت عليه : من استمع إلى قينة ؛ صب في أذنيه الأنك يوم القيامة . قال الألباني في السلسلة الضعيفة : 10/52 (4549) : باطل

بذلك ، والأذرعى نقل عن القرطبي أنّ جمهور من أباح استماع الغناء [13] حكموا بتحريمه من الأجنبية على الرجال ، ومن الأمرد والحسن على الرجال والنساء ، وقوله : لأنه ، أي وصل الغانيات ، آل ، قال في القاموس : الآل : السراب ، أو خاص بما فيه أول النهار ، والبلقعة ، والبلقع : كلاهما الأرض القفراء ، وقوله وبرق خلب ، قال في القاموس : البرق الخلب وبرق خلب : المطمئ المخلف¹ .

ثم أشار المؤلف — رحمه الله تعالى — إلى ترك ما لا طائل تحته ، فقال :

ذَهَبَ الشَّابُّ فَمَا لَهُ مِنْ عَوْدَةٍ وَأَتَى الْمَشِيبُ فَأَيْنَ مِنْهُ الْمَهْرَبُ²

قوله : ذَهَبَ الشَّابُّ فَمَا لَهُ مِنْ عَوْدَةٍ ، أي فات ، وهو غير مستدرك ، لأنه لا يمكن تداركه ، ولا يتيسر تعويضه ، وقوله : وَأَتَى الْمَشِيبُ ، أي حلّ به ، فلا ينبغي لمن ذهب شبابه ، وأدرك المشيب ، إلا الاجتهاد في الأعمال الصالحة ، والمسارة في الخيرات ، وتحصيل الزاد ، والتأهب ليوم المعاد ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾³ ، قيل : هو الشيب ، وقيل : هو الموت ، وقيل : هو غير ذلك ، يعني أنّ الشيب ونحوه رسول الموت ، وفي الحديث الشريف : [مامن شعرة تبيض إلا قالت لأختها : استعدي ، فقد قرب الموت]⁴ ، وقال صلى الله عليه وسلم : [مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ ، كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ]⁵ ، لأنّ الشيب نذير الله للبعد في الدنيا ، ونذير الموت ، وقال بعضهم شعرا : [14]

تَرَوُّدٌ جَمِيلاً مِنْ فَعَالِكَ إِنَّمَا قَرِينُ الْفَتَى فِي الْقَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ

أَلَا إِنَّمَا الْإِنْسَانُ ضَيْفٌ لِأَهْلِهِ يَقِيمُ قَلِيلاً عَنْدهُمْ ثُمَّ يَرْحَلُ⁷

وقوله : فَأَيْنَ مِنْهُ الْمَهْرَبُ ، أي أين يهرب من الموت ؟

ثم أشار المصنف ، فقال :

¹ القاموس المحيط (خلب) .

² قبل هذا البيت بيت لم يعرض له الشارح ، وهو :

فَدَعِ الصَّبَا فَلَقَدْ عَدَاكَ زَمَانُهُ **وَإِزْهَدْ فَعُمْرُكَ مِنْهُ وَلَى الْأَطْيَبُ**
وهذا البيت موجود في مخطوطة (طوكيو)

³ فاطر 37

⁴ لم أقف عليه بهذا اللفظ .

⁵ المسند الجامع ، لأبي الفضل السيد أبي المعاطي النوري (11275)34/359

⁶ كتب : يرى ، وما أثبتناه من ربيع الأبرار .

⁷ أنشد الصلصال بن الدلهمس هذه الأبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

تخير قريناً من فعالك إنما	قرين الفتى في القبر ما كان يفعل
وإن كنت مشغولاً بشيء فلا تكن	بغير الذي يرضى به الله تشغل
ولن يصحب الإنسان من قبل موته	ومن بعده إلا الذي كان يعمل
ألا إنما الإنسان ضيف لأهله	يقيم قليلاً عندهم ثم يرحل

انظر : ربيع الأبرار ، للزمخشري / الموسوعة الشعرية .

ضَيْفٌ أَلَمَ إِلَيْكَ لَمْ تَحْفَلْ بِهِ¹ فَتَرَى لَهُ أَسْفًا وَدَمْعًا يَسْكُبُ

قوله : ضَيْفٌ أَلَمَ إِلَيْكَ ، أي شيب حلّ ونزل بك ، فلم تكرمه ، ولم تحشمه حقّ احتشامه ، ولم تعتبره ، وقوله : فَتَرَى لَهُ أَسْفًا ، أي لعدم اعتنائك به ، وقوله : وَدَمْعًا يَسْكُبُ ، أي ينزل ، وما أحسن ما قال المبرد في الكامل ، ونقله في أماليه :

عَرِيتَ مِنَ الشَّبَابِ وَكُنْتُ غَضًّا كَمَا يَعْرِى مِنَ الْوَرَقِ الْقَضِيبُ²
وُثِّحَتْ عَلَى الشَّبَابِ بَدَمْعٌ عَيْنِي وَنُتِجَ مَا أَغْنَى النَحِيبُ
فِيَا أَسْفًا أَسِفْتُ عَلَى شَبَابِي نَفَاهُ الشَّيْبُ وَالرَّأْسُ الْخَضِيبُ
أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأَخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

قال في كتاب المريد لجوهرة التوحيد ، ونص عبارته : قال الدميري في فروع المذهب عن فقير ، قال: دخلت على الإمام الشافعي في مرض موته، فقلت له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا ، ولإخواني مُفارقا ، ولكأس المنية شاربا ، ولا أدري إلى الجنة تصير روحي فأهنيها ، أو إلى النار فأعزيها ، وأنشد يقول: [15]

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلْمًا³
تَعَاطَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — فقال :

دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ فَاتَ فِي زَمَنِ الصَّبَا وَأَذْكُرْ ذُنُوبَكَ وَابْكُهَا يَا مُذْنِبُ

قوله : دَعْ عَنْكَ ... إلى آخره ، أي اترك ما قد فات في زمن الصبا ، من اللعب ، واللهو ، وغير ذلك ، وقوله : وَأَذْكُرْ ذُنُوبَكَ ، أي الصغائر والكبائر ، وقوله : وَابْكُهَا يَا مُذْنِبُ ، أي ابك عليها وعلى الزمن الذي فات فيها بلا عمل صالح ، وأت بتوبة نصوحة معتبرة ، مقلعة من الذنوب ، وتعزم على أن لا تعود ، وتندم على ما مضى ، وترد المظالم إلى أهلها إن كانت ، وسيأتي شرحها إن شاء الله تعالى .

خاتمة :

يُحْكِي أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَقَالَ : إِلَهِي ! نَامَتِ الْعَيُونُ ، وَعَادَتِ النُّجُومُ ، وَأَنْتَ حَيٌّ قَيُّومٌ ، لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، قَالَ : فَأَجَابَتْهُ ضَفْدَعَةٌ مِنْ فَوْقِ الْبَحْرِ ، وَقَالَتْ : يَا عِيسَى ! نَامَتِ الْعَيُونُ ، وَعَيْنِي لَا تَنَامُ مِنْذُ خَلَقَنِي اللَّهُ ، وَلَا أَنَامُ إِلَى يَوْمٍ أَمُوتُ ، لَا جَنَّةَ أَرْجُو ، وَلَا نَارَ أَخَافُ ، فَكَيْفَ يَنَامُ مَنْ يَرْجُو ثَوَابَهُ ، وَيَخَافُ عِقَابَهُ .

¹ كتب : ضيف ألم إليك فلم تبهج به ، وما أثبتناه من الديوان / الموسوعة الشعرية

² لمحمد بن عبد الملك الزيات يشتكي مصابه ويذكر فجيعته ويبكي على زمانه .

³ من الطويل . ديوان الشافعي / الموسوعة الشعرية .

ثم إنَّ الشخص يُعاقب ويُحاسب على ما اكتسبه من الذنوب وغيرها ، قليلة كانت أو كثيرة ، كبيرة كانت أو صغيرة ، كما قال المؤلف ، رحمه الله تعالى : [16]

وَإِخْشَ مَنْقَشَةَ الْحِسَابِ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ يُحْصَى مَا جَنَيْتَ وَيَكْتَبُ

قوله : مَنْقَشَةَ الْحِسَابِ ، أي لأنك تُحاسب على النقيير¹ والقطمير² ، ولا تنظر إلى كثرة طاعتك ، قال أبو الفضل الأحمدي تلميذ الخواص الشعرائي : مَنْ نظر إلى كثرة عمله عاجلا وآجلا ، أخرج من صف العبودية ، انتهى .

واعلم أنَّ يوم الحساب يوم عظيم ، يشيب فيه الوليد من فرعه وأهواله ، قلَّ مَنْ ينجو منه ، إلَّا مَنْ استثنى الله سبحانه وتعالى ، فنقول :

أولا في قيام الساعة : إذا أراد الله سبحانه وتعالى قيامها كون النفخ في الصور ، فإذا الجبال تتطاير ، وتسير مثل السحاب ، والبحار تنفجر بعضها في بعض ، وكُوِّرَت الشمس ، فتكون سوداء مدوَّرة ، وفُجِّرَت البحار ، حتى ملأت عالم الهواء ، ودخل العالمون بعضهم في بعض ، وعادت السماء كدهن الورد ، تدور كدوران الرحي ، وزلزلت الأرض زلزالا شديدا ، وغير ذلك .

وثانيا في الإقامة بين النفختين : اختلف الناس في الإقامة بين النفختين ، واستقرَّ جمهورهم على أربعين سنة ، وحدثني مَنْ لا أشكَّ في علمه أنَّ أمد ذلك لا يعلمه إلَّا الله سبحانه وتعالى ، لأنه من أسرار الربوبية ، وكذا حدثني أنَّ الاستثناء واقع على الله سبحانه وتعالى خاصة ، فقلت : ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : **[أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ³ ، فَأَجِدُ [17] موسى عليه السلام أخذ بساق العرش ، فلا أدري أبعث قبلي أم كان ممن استثناءه الله تعالى عزَّ وجلَّ]** . فقال : تخريج هذا الحديث لو كان على ما نقدره — أنَّ الأنفس تُحشر من غير

أجسام — لكان موسى الآن لا جنة له ، ولعل الاستثناء الذي عني به رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الفرع ، لأنَّ البرايا عند الصعقة ، وعند الفرعة يستفيقون ، كما قال كعب الأحبار ، رضي الله عنه ، وقد حدَّث في مجلس عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه في المقام المحمود ، حيث قال : لو كان لك يا ابن الخطاب عمل سبعين نبيا لظننت أنك لا تنجو من ذلك اليوم ، إلَّا قوما

¹ النقيير : النكتة التي في ظهر النواة . لسان العرب ، لابن منظور (نقر)
² القَطْمِيرُ : الفوَّة التي في النواة؛ وهي القشرة الرقيقة، ويقال هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة. الصحاح ، للجوهري . (قطمر) .
³ إلى هنا في جامع الأصول من أحاديث الرسول ، لأبي السعادات ابن الأثير 8/ 6465 ، أما باقي الحديث ، فلم أقف عليه ، وهذا الحديث بتمامه : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «أنا أولُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ عُمَرُ ، فَتَأْتِي الْبَقِيْعُ فَيُحْشَرُونَ مَعِيَ ، ثُمَّ نَنْتَظِرُ أَهْلَ مَكَّةَ ، حَتَّى نَحْشَرَ بَيْنَ أَهْلِ الْحَرَمَيْنِ » . أخرجه الترمذي .

استثناهم الله عز وجل من أهل الفزع والصعقة ، وهم أهل المقام الرابع ، لا شك أنّ موسى عليه السلام أحدهم ، وإلاّ أستثني من بلوغ الخوف والأمن ، لأنه لو كان هناك أحد لأجاب الله سبحانه وتعالى حيث يقول : لمن الملك اليوم ؟ يُقال : لك يا واحد ، يا قَهَّار .

وإذا خرج الخلائق واستوى الكل قاعدين على قبورهم ، فمنهم العريان ، والمكسي ، والأبيض ، والأسود ، ومنهم من يكون له نور كالمصباح العظيم ، ومنهم من يكون له كالنجم ، ومنهم من يكون له نور كالقمر ، ومنهم من يكون له نور كالشمس ، ولا يزال كل واحد ينظر ، وهو مطرق برأسه ، ما يدري ما يُصنع به ألف عام ، حتى تكون من الغروب [18] ، فأولها دويّ عظيم ، وهي تُساق ، فتشهد لها رؤوس الخلائق : إنسا ، وجنا ، ووحشا ، وطيرا ، فيأتي لكل واحد منهم عمله من المخاطبين ، فيقول له : قم وانفض إلى الخشر ، فمن كان حينئذ عمل خيرا تُشخّص له سفينة يركبها ، ومنهم من يُشخّص له عمله حمارا يركبه ، ومنهم من يُشخّص له عمله بغلا يركبه ، ومنهم من يُشخّص له عمله كبشا ، تارة يركبه ، وتارة يقلبه ، ومنهم من يُحشر على صفته الدنيوية بعينها ، وربما كان مفتونا بالعود ؛ معتكفا عليه مدة دهره ، فعند قيامه من قبره ، يجده بيمينه ، فيطرحه من يده ، فيقول له : سحقا لك ، شغلتنني عن ذكر الله ، فيعود إليه ، ويقول : أنا صاحبك ؛ حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين ، وكذا يبعث السكران سكرانا ، والزامر زَمَارا ، وكل واحد على الحال الذي صدّه عن ذكر الله ، وعن الآخرة ، ومثل الحديث الذي في الصحيحين [إنَّ شارب الخمر يحشر يوم القيامة والكوز معلق في عنقه ، والقدر بيده ، وهو أنتن من كل جيفة ، توجد على وجه الأرض ، يلعنه من مرّ به من الخلائق]¹ ، والميت أيضا يُحشر بظلامته ، كما جاء في الصحيحين : [إنَّ المقتول في سبيل الله يأتي يوم القيامة وجرحه يشخب دما ، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ]² ، حتى [19] يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى ، فإذا ساقته الملائكة زمرا وأفواجا ، حُشر كل واحد عليها ، له تحت كل واحد ما قدر له ، وجمّعوا كلهم في صعيد واحد ، والأولون والآخرون كذلك ، ثم يأمر الجليل جلّ جلاله ملائكة السماء أن ينزلوا ويتولّوهم ، فيأخذ كل واحد منهم واحدا من المبعوثين إنسا وجنا ، ووحشا ، وطيرا ، ويجدّ بهم إلى الأرض الثانية ، وهي أرض بيضاء من فضة ، وصارت

¹ لم أجده في الصحيحين ، ولا في غيره من كتب الحديث بهذا اللفظ .
وجاء في كتاب الحاوي للفتاوي ، للسيوطي / الفتاوى الحديثية - كتاب البعق ، ص 113 ما نصه :
قال **الغزالي** في كشف علوم الآخرة : من الناس من يحشر بفتنته الدنيوية ، فقوم مفتونون بالعود ، فعند قيامه من قبره يأخذ بيمينه فيطرحه ، فيعود إليه ، وكذلك يبعث السكران سكران ، والزامر زامرا ، وشارب الخمر والكوز معلق في عنقه ، وكل أحد على الحال الذي صدّه في الدنيا عن سبيل الله . انتهى .
² صحيح البخاري 4/22 (2803) ، ونصه : [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يَكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ - إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ] .

الملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة ، فإذا هم أكثر من أهل الأرض عشر مرات ، ثم يأمر الله ملائكة السماء الثانية ، فيحرقون بالكل حلقة واحدة ، فإذا هم مثلهم عشرين مرة ، ثم تنزل ملائكة السماء الثالثة فيحرقون من ورائهم حلقة واحدة ، فإذا هم مثلهم ثلاثين مرة ، ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة ، فيحرقون بهم حلقة واحدة ، فإذا هم مثلهم أربعين مرة ، ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة ، فيحرقون بهم حلقة واحدة ، فإذا هم مثلهم خمسين مرة ، ثم تنزل ملائكة السماء السادسة ، فيحرقون بهم حلقة واحدة ، فإذا هم مثلهم ستين مرة ، ثم تنزل ملائكة السماء السابعة ، فيحرقون بهم حلقة واحدة ، فإذا هم مثلهم سبعين مرة ، هذا والخلق تتداخل بعضها في بعض ؛ حتى يعلو على القدم ألف قدم [20] من كثرة الازدحام والانضمام ، وتخوض الناس في العرق على أنواع مختلفة ، فمنهم إلى الأذقان ، ومنهم إلى الصدر ، ومنهم إلى الحقوين ، ومنهم إلى الركبتين ، ومنهم إلى المنكبين ، ومنهم من يعوم فيه كالضفدع ، ومنهم من يصيبه الرشح اليسير ، كالقاعد في الحمّام ، ومنهم من تصيبه البّلة ، كالعاطش إذا شرب الماء فأصابه الري . وهم أصحاب المقابر ، وأصحاب الرشح هم أصحاب الكراسي ، وأصحاب الكعابين هم قوم يموتون غرقا ، هذا والملائكة يُنادونهم : ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَخْزُونَ﴾¹.

وقد حدثني بعض العارفين أنهم الأوابون ، كالفضيل² وأصحابه وأمثاله ، وهذه الأوصاف الثلاثة : أهل الري ، والرشح ، والبلل ، هم الذين تبيّض وجوههم ، ومن دونهم تسود ، وكيف لا يكون الأرق والعرق والفرق ، وقد قربت الشمس من رؤوسهم ؛ حتى لو مدّ أحدهم يده لناها ، ويتضاعف حرّها عن العادة سبعين مرة .

وقال بعض العارفين : لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة ، لحرقت الجبال ، وذابت الصخور ، ونشفت الأنهار . واعلم أنّ الشمس في السماء الرابعة ، كما قال الخطيب ، وبينها وبين الدنيا مسيرة أربعة آلاف عام ، ولم نصبر على أيام حرّها ، فكيف حالنا إذا دنت من رؤوسنا ؟! فنسأل [21] الله أن يُلطف بنا في الدارين .

ثم يؤتى بالعرش تحمله الثمانية أملاك ، سُمك قدّم الملك منهم مسيرة عشرين ألف عام ، وأفواج الملائكة والغمام بأفواج التسبيح ، ولهم زجل عظيم ، لا تعقله العقول ؛ حتى يستقر

¹ الزخرف 68

² الفضيل بن عياض (105 - 187 هـ) : الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي البريعي، أبو علي: شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصالحاء. كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعي. ولد في سمرقند، ونشأ بأبيورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها. ثم سكن مكة وتوفي بها. من كلامه: " من عرف الناس استراح . الأعلام ، للزركلي 5/153

العرش في تلك الأرض البيضاء ، التي خلقها الله سبحانه وتعالى لهذا الشأن خاصة ، فيطرق الرؤوس ، وتنشق الأرض ، وترغب الأنبياء ، وتخاف العلماء ، وتفزع الأولياء والشهداء من عذاب الله ، الذي لا يطيقه أحد .

قال : فينما هم كذلك إذ يسطع على الخلائق من نور الله عز وجل ما يغلب حرارة الشمس ، التي كانوا فيها ، فيطمئنون ، ولا يزالون كذلك ، يموج بعضهم في بعض ألف عام ، هذا والجليل جلّ جلاله لا يكلمهم كلمة واحدة ، فحينئذ تذهب الناس إلى آدم عليه السلام ، فيقولون : يا أبا البشر ! لقد طال الأمر علينا ، وأما الكافر ، فيقول : يا رب ! أرحني ، ولو إلى النار ، وذلك لما بدا من شدة الهول ، فتقول الخلائق لآدم : اشفع لنا في فصل القضاء ، فيقول لهم : إني عصيت الله حين نهاني عن الأكل من الشجرة ، وإني أستحي أن أكلمه في هذا اليوم ، ولكن اذهبوا إلى نوح ، لعله يشفع لكم ، قال : فيذهبون إلى نوح عليه السلام ، ويسألونه أن يشفع لهم في فصل القضاء ، فيقول : إني دعوت الله دعوة أغرقت بها أهل الأرض **1** **22** وإني أستحي أن أسأل الله في مثل هذا اليوم ، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام ،

فيذهبون إليه ، ويقولون له : يا خليل الله ! اشفع لنا عند ربك في فصل القضاء ، فيقول لهم إني كذبت في الإسلام ثلاث كذبات ، جادلت بمن دين الله عز وجل ، وإني أستحي أن أكلم الله سبحانه وتعالى في ذلك المقام ، ولكن اذهبوا إلى موسى ، لعله يشفع لكم ، قال : فيتشاورون فيما بينهم ألف عام ، هذا والحال يزداد شدة ، والموقف ضيق ، ثم يأتون إلى موسى عليه السلام ، ويقولون : يا ابن عمران ، أنت كلّم الله ، اشفع لنا في فصل القضاء ، فيقول لهم : أنا سألت الله أن يأخذ آل فرعون بالسنين ، وأن يجعلهم مثلاً للآخرين ، وإني أستحي أن أكلمه في هذا اليوم ، ولكن اذهبوا إلى عيسى ، لعله يشفع لكم ، لأنه روح الله سبحانه وتعالى ، قال : فيأتون عيسى عليه السلام ، فيقولون له : يا نبي الله ، يا ابن مريم ! اشفع لنا عند ربك في فصل القضاء ،

فيقول لهم : إنّ النصرارى جعلوني أتي قلت : ﴿ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾¹ ، وكيف أشفع عند من عبّدت معه ، ولكن اذهبوا إلى سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، واسألوه الشفاعة ، قال : فيأتون إلى منبره صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : يا رسول الله ! أنت حبيب الله ،

والحبيب أوجه ، فاشفع **23** لنا في فصل القضاء ، فلقد ذهبنا إلى آدم ، فأحالتنا إلى نوح ، وذهبنا إلى نوح ، فأحالتنا إلى إبراهيم ، وذهبنا إلى إبراهيم ، فأحالتنا إلى موسى ، وذهبنا إلى موسى ، فأحالتنا إلى عيسى ، وذهبنا إلى عيسى ، فأحالتنا إليك ، وليس لنا بعدك مطلب ، ولا عنك مهرب ، فيقول : أنا لها ، أنا لها ، حتى ﴿ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾² ، ثم ينطلق صلى الله عليه وسلم

¹ المائدة 116

² النجم 26

إلى سُرَادِقَاتِ الْجَلال ، جلّ جلاله ، فيستأذن ، فيؤذن له ، ثم يُرفع الحجاب ، فيلوح له العرش ، ثم يجترّ ساجدا ، يمكث في سجده ألف عام ، وهو يحمّد الله ، سبحانه وتعالى بمحامد ما حمد الله بها أحد قط ، ثم يُنادي الجليل جلّ جلاله : يا محمد ! ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، واشفع تُشَفِّع ، فيقول صلى الله عليه وسلم : يا رب ! افصل بين عبادك ، فقد طال مقامهم ، وقد فُضح كل منهم بذنبه في عرصات القيامة ، فيقول : نعم يا محمد ، ثم يأمر الله الجنة أن تُزخرف ، وتُزَيّن ، فيأتي بها ، ولها نسيم طيبة ، أعقب ما يكون وأزكى ، فيوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ، فتردّ النفوس ، وتحى القلوب إلّا قوما كانت أعمالهم في الدنيا خبيثة ، فإنهم مُنعوا من ريحها ، فتوضع عن يمين العرش ، ثم يأمر الله أن يؤتى بالنار ، فترتعب منها الخلائق ، وتفرع ، ثم تقول النار للملائكة المرسلين : هل تعلمون أنّ الله سبحانه وتعالى خلق [24] شيئا يريد أن يعذبه بي ، فيقولون لها : وعزته إنّما أرسل إليك لتنتقمي من عصاه من خلقه ، ولمثل هذا اليوم خلقك ، قال : ثم يأتون بها ، وهي تمشي على أربع قوائم ، وهي تُقاد بسبعين ألف زمام ، في كل زمام سبعون ألف حلقة من حديد ، لو جُمع حديد الدنيا ما عدل منها حلقة واحدة ، وعلى كل حلقة سبعون ألف زباني من الزبانية ، لو أمر زباني منهم أن يدكّ الجبال لدكها ، أو يمدّ الأرض لمدّها ، ولها شهيق ودوي وشرر ودخان يثور ؛ حتى يسد الأفق ظلمته ، قال : فإذا كان بينها وبين الخلائق ألف عام تفلتت من أيدي الزبانية ؛ حتى تأتي أهل الموقف ، ولها أمل ، ثم تصعق صعقة ، فيقول أهل الموقف : ما هذه الصعقة ، فيقال : هذه صعقة جهنم ، قد تفلتت من أيدي الزبانية ، فلم يقدرُوا على إمساكها ؛ لعظم شأنها ، فيجثو الكلّ على الركب ؛ حتى المرسلين ، قال : فعند ذلك يتعلق إبراهيم وموسى وعيسى والنبيّين بساق ، ثم يقول كل منهم : يا رب ! نفسي ، نفسي ، لا غيرها ، هذا والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : يا رب ! أمّتي ، أمّتي ، سلّمها ، ونجّها ، وليس في الموقف من تحمله ركبتاه ، إلّا النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فيبرز بأمر الله سبحانه ، يقال : ويأخذ بخطامها ، ويقول لها : ارجعي مدحورة إلى خلقك ، حتى تأتي [25] أفواجك ، قال : فتقول له : خلّي سبيلي يا محمد ، فإنك مُحَرَّم عليّ ، أنت ومن يقول لا إله إلّا الله ، محمد رسول الله ، قال : فينادي الجليل جلّ جلاله من سُرَادِقَاتِ العرش : اسمعي منه ، وأطيعي أمره ، ثم تُجذب وتوضع على يسار العرش ، ويتحدّث أهل الموقف بزجرها ، فيخف عنهم الوجل ، وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾¹ ، فهناك يُنصب الميزان ، له كفتان من نور ، كفة عن يمين العرش ، وكفة عن يسار العرش ، ثم يكشف الجليل جلّ جلاله عن ساقه ، فيسجد الناس كلهم ؛ تعظيما وتواضعا ، إلّا الكفار ، الذين أشركوا به أيام حياتهم ، ومن عبد

¹ الأنبياء 107

الحجارة ، والخشب ، وما لم ينزل به سلطانا ، فإنهم يومئذ أصلاهم تصير حديدا ، فلا يقدرّون على السجود ، قال : فبينما الناس ساجدون ، إذ نادى الجليل جلّ جلاله بصوت يسمعه القريب والبعيد ، وهو يقول : أنا الملك الديان ، لا يجاوزني ظلم ظالم ، ثم يحكم الله سبحانه وتعالى بين البهائم ، فيقتص من القرناء للجمّاء ، ويفصل بين الوحش والطير ، ثم يقول لهم : كونوا ثرابا ، ثم يحكم الله سبحانه وتعالى بين الخلائق ، فمنهم من يروح إلى النار ، وقانا الله سبحانه وتعالى منها ، ومن عذابها ، وجعلنا الله سبحانه وتعالى وإياكم من أهل الجنة ، وفي هذا القدر كفاية ، وبقي أمور كثيرة [26] لا يحتملها هذا الشرح ، والاختصار أولى .

وقول المؤلف: لا بُدَّ يُحصي، أي يُضبط ، ما جَنَيْتَ : أي ما اكتسبت من قول أو فعل ، أو اعتقاد ، أو عزم ، أو تقرير ، وقوله : وَيَكْتُبُ ، أي تكتبه الملائكة الموكّلون بكتب ما ضبط عليك .

ثم أشار المؤلف — رحمه الله تعالى — فقال :

وَاللَّيْلَ فَأَعْلَمَ وَالنَّهَارَ كِلَاهُمَا أَنْفَاسُنَا بِهِمَا تُعَدُّ وَتُحَسَبُ

قوله : وَاللَّيْلَ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ من خصائص أهل الأرض ، فيكتب على أهله ما صدر فيه ، وهل الليل في السماء كما هو في الأرض ، أم في الأرض فقط ؟

الجواب كما قال ابن حجر : الذي دلّت عليه الآيات القرآنية ، أنه من خصائص أهل الأرض ، لأنه سبحانه وتعالى مَنْ عَلَيْنَا بِهِ ؛ راحة لنا ، لئلا نتعب ونمل ، بخلاف أهل السماء ، وَأَمَّا معنى قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾¹ ، أي أنهم دائمون على ذلك ، فكأن بذلك على الدوام ، وَأَمَّا وقوع المعراج إنما هو بالنسبة لأهل الأرض ، وقوله : أَنْفَاسُنَا ، أي معاشر الآدميين ، كبيرا كان أو صغيرا ، مسلما كان أو كافرا ، ذكرا كان أو أنثى ، حرا كان أو رقيقا ، وقوله : بِهِمَا ، أي بالليل والنهار ، وقوله : تُعَدُّ وَتُحَسَبُ ، أي لم يترك منها شيء ، قلّ أو جلّ .

ثم أشار المؤلف — رحمه الله تعالى — فقال :

لَمْ يَنْسَهُ الْمَلَكُ حِينَ نَسِيَتْهُ بَلْ أَثْبَتَاهُ وَأَنْتَ لَا تَلْعَبُ

[27] قوله : لَمْ يَنْسَهُ الْمَلَكُ ، أي الموكلون بك ، وقوله : حِينَ نَسِيَتْهُ : أي لم تذكره ، وقوله : بَلْ أَثْبَتَاهُ : أي كتبه ، والكتب حقيقي بآلة وقرطاس ومداد ، وهو يعلمها سبحانه وتعالى ؛ حملا للنصوص على ظواهرها ، ففي حديث معاذ بن جبل إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : **[إِنَّ اللَّهَ لَطَفَ الْمَلَائِكِينَ الْحَافِظِينَ حَتَّى أَجْلَسَهُمَا عَلَى التَّاجِذِينَ وَجَعَلَ لِسَانَهُ قَلَمَهُمَا وَرَبْقَهُ**

¹ الانبياء 20

مِدَادُهُمَا¹ ، والمراد بالناجذ ين هما آخر الأضراس : الأيمن والأيسر ، وقيل : محلهما من الإنسان عاتقاه ، وقيل : ذقنه ، وقيل : شفتيه ، وقيل : عنفقتيه ، وقيل : غير ذلك ، ومَلَك الحسنات من ناحية اليمين ، أمين على كاتب السيئات من ناحية اليسار ، فَإِنْ مَشَى كَانَ أَحَدُهُمَا أَمَامَهُ ، وَالْآخَرُ خَلْفَهُ ، وَإِنْ قَعَدَ كَانَ أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِهِ ، وَالْآخَرُ عَنْ يَسَارِهِ ، وَإِنْ رَقَدَ كَانَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِهِ ، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ ، كَمَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُمَا لَا يَتَغَيَّرَانِ مَا دَامَ حَيًّا ، وَقِيلَ : لِكُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَلَكَانِ يَتَعَاقَبَانِ عِنْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، وَعِنْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ ، وَيُؤَرِّخُونَ مَا يَكْتُبُونَ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ بِالْأَيَّامِ ، وَالْجُمُعِ ، وَالْأَشْهُرِ ، وَالْأَعْوَامِ ، وَالْأَمَاكِنِ ، لَمْ يَتْرَكُوا شَيْئًا مِنْ مُبَاحٍ وَغَيْرِهِ ، وَقَالَ فِي فَتْحِ الرَّحْمَنِ² : وَاخْتَلَفَ هَلْ يَكْتُبُ الْمُبَاحُ ، أَوْ لَا ؟ فَقَالَ مَالِكٌ : يَكْتُبُ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ ؛ حَتَّى أَنْيَنَ فِي مَرَضِهِ ، وَهُوَ ظَاهِرُ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى [28] : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾³ ، وَفَائِدَةُ تَوْكِيلِهِمْ لَطْفَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ ، لِأَنَّهُمْ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَلَائِكَةٌ ، تَحْفَظُ عَلَيْهِمْ أَفْعَاهُمْ ، وَيَكْتُبُونَهَا أَنْزَجَرُوا عَنْ الْمَعَاصِي ، وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ إِذَا احْتَجَّوْا . أَهـ .

تنبيه :

روى الطبراني أَنَّ عَثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عِدَدِ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِالْأَدْمِيِّينَ ، فَقَالَ : [لِكُلِّ آدَمِيٍّ عَشْرَةٌ بِاللَّيْلِ ، وَعَشْرَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِهِ ، وَوَاحِدٌ عَنْ يَسَارِهِ ، وَاثْنَانِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَاثْنَانِ عَلَى جَبِينِهِ ، وَوَاحِدٌ قَابِضٌ عَلَى نَاصِيَتِهِ ، فَإِنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ ، وَإِنْ تَكَبَّرَ خَفَضَهُ ، وَاثْنَانِ عَلَى شَفَتَيْهِ لِيَسَا يَحْفَظَانِ عَلَيْهِ إِلَّا الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَطْ ، وَالْعَاشِرُ يَحْرُسُهُ مِنَ الْحَيَّةِ أَنْ تَدْخُلَ فَاهُ]⁴ ، وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ كُلَّ عَبْدٍ وَكُلُّ بَهِيمَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ . وَأَخْرَجَ ابْنُ الدُّنْيَا عَنْ أَبِي أَمَامَةَ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [وَكُلُّ بَالِغٍ مِنْ ثَلَاثِينَ وَكُلُّ مَلَكٍ يَدْفَعُونَ عَنْهُ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْبَصَرُ لَهُ سَبْعَةٌ أَمْلاكَ ، يَذُبُّونَ عَنْهُ ، كَمَا يُدَبُّ الذَّبَابُ عَنْ قِصْعَةِ الْعَسَلِ فِي الْيَوْمِ الصَّائِفِ]⁵ ، أَهـ . مِنْ فَتَاوَى ابْنِ حَجَرٍ . وَقَوْلُهُ : وَأَنْتَ لَا تَلْعَبُ : أَيُّ غَافِلٍ .

¹ أخرجه أبو الشيخ في "طبقات الأصبهانيين" (ق 51/1) ، وأبو نعيم في "أخبار أصبهان" (2/1/1) ، والديلمي (1/2/236) عن نعيم بن المورع عن علي بن سالم عن مكحول عن معاذ بن جبل مرفوعاً . قال الألباني في السلسلة الضعيفة 6/147 : موضوع

² لموسى بن ميمون الطخيلي (ت 974هـ) .

³ سورة ق 18

⁴ لم أجده في كتب المتن ، ولا في كتب التخريج والزوائد . وقد ورد في تفسير الطبري من طريق كنانة العدوي ، وهو مذكور في مجلة كلمة الله تعالى ، العدد (60) لمؤسسها هانيبال يوسف حرب ، كما ورد في تفسير الطبري من طريق كنانة العدوي .

⁵ لم أجده في كتب المتن ، ولا في كتب التخريج والزوائد ، وهو في تفسير الألوسي .

ثم أشار المصنف بقوله [29] .

وَالرُّوحُ فِيكَ وَدِيعَةٌ أَوْدَعْتُهَا سَرَرْتُهَا بِالرَّغَمِ مِنْكَ وَتُسَلَّبُ

قوله : وَالرُّوحُ فِيكَ وَدِيعَةٌ ، أي وهو كما قال إمام الحرمين¹ : إِنَّ الرُّوحَ جِسْمٌ لَطِيفٌ مُشْتَبِكٌ فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ ، كَاشْتَبَاكَ الْمَاءُ بِالْعُودِ الْأَخْضَرِ .

وقال الجنيد — رحمه الله تعالى — : هو شيء استأثر الله بعلمه ، ولم يطلع عليه أحد من خلقه ، فلا يجوز البحث عنه من أنه موجود ، وقيل الروح هي النفس ، وقيل إن للإنسان نفسان ، إحداهما جوانية ، وهي التي لا تفارق ، لا في نوم ، ولا في يقظة ، ولا في مرض ، ولا في شدة ، ولا في صحة ، ولا في إغماء ، ولا في جنون ، وإنما تفارقه بالموت ، والثانية روحانية ، وهي التي يتوجه إليها الخطاب والتكليف ، انتهى من شرح تائية السبكي .

وقوله : وَدِيعَةٌ أَوْدَعْتُهَا : أي أمانة أودعها الله فيك ، وقوله : سَرَرْتُهَا بِالرَّغَمِ مِنْكَ : أي بالقهر والغلبة عليك ، وقوله : وَتُسَلَّبُ : أي يأخذها الله ، يعني يأمر ملائكته بأخذها منك .

فائدة :

سئل كعب الأحمار — رضي الله عنه — عن الموت ، فقال : هو كغصن شوك أدخل في جوف رجل ، فجذبه رجل شديد القوة ، فقطع منه ما قطع ، وأبقى منه ما أبقى ، وقال صلى الله عليه وسلم : [لسكرة من سكرات الموت أشد من ثلاثمائة ضربة بالسيف]² ، فعندها يؤشع جبينه ، وتزرق عيناه ، وترتفع أضلاعه [30] ، وتعلو نفسه ، ويصفر لونه .

وقد تختلف أحوال الموتى ، فمنهم من يطعنه ملك الموت بحربة مسمومة ، قد سقيت سماً من نار ، فتفرّ النفس خارجة ، فيأخذها الملك في يده ، وهي ترعد أشبه شيء بالزئبق ، وهي على قدر الجرادة³ شخصاً إنسانياً ، ثم يناولها لأعوانه ، ومنهم من تجذب رويدا رويدا ؛

¹ أبو المعالي الجويني (419 - 478 هـ) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين: أعلم المتأخرين، من أصحاب الشافعي. ولد في جوين (من نواحي نيسابور) ورحل إلى بغداد، فمكة حيث جاور أربع سنين. وذهب إلى المدينة فافتى ودرس، جامعاً طرق المذاهب. ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له الوزير نظام الملك «المدرسة النظامية» فيها. وكان يحضر دروسه أكابر العلماء. له مصنفات كثيرة، منها: غياث الأمم والنيّات الظلم، [و العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، و البرهان — في أصول الفقه، و نهاية المطلب في دراية المذهب — في فقه الشافعية، و الشامل — في أصول الدين، على مذهب الأشاعرة، و الإرشاد — في أصول الدين، و الورقات — في أصول الفقه، و مغيث الخلق — أصول. توفي بنيسابور .

² لم أجد في كتب المتنون ، ولا في كتب التخرّيج والزوائد ، وهو في كتاب : علم اليقين في أصول الدين ، لمحسن الكاشاني 2/850

³ كتب النحلة ، وما أثبتناه من كتاب التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، للقرطبي .

حتى تنحصر في الحنجرة ، وليس يبقى في الحنجرة إلاّ شعبة متعلقة بالقلب¹ ، فحينئذ يطعنها الملك بتلك الحربة المسمومة² ، فإنّ النفس لا تفارق البدن ؛ حتى تُطعن .

تممة :

أخرج جبير عن الضحّاك عن ابن عباس ، رضي الله عنهما أنه قال : توكل ملك الموت بقبض أرواح الآدميين ، فهو الذي يلي قبض أرواحهم ، وملك في الجن ، وملك في الشياطين ، وملك في الطير والوحش والسباع والحيات والنمل ، فهم أربعة أملاك ، والملائكة يموتون في الصعقة الأولى ، وإنّ ملك الموت يلي قبض أرواحهم ، ثم يموت ، وأمّا الشهداء فإنّ الله تعالى يلي قبض أرواحهم ، انتهى من الدر المنثور³ .

فائدة :

ورد في الحديث عن أبي الدنيا في ذكر الموت ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ⁴ في العظمة عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أنه سئل عن اثنين اتّفق موتهما في طرفة عين ، أحدهما بالمشرق ، والآخر بالمغرب ، كيف قدرة ملك الموت على قبض رويهما ؟ فقال : قدرة ملك الموت على أهل [31] المشارق والمغارب ، والظلمات ، والهواء ، والبحر ، كقدرة رجل بين يديه مائدة ، يتناول من أيّها شاء .

فائدة ثانية :

أخرج ابن أبي الدنيا ، والمروزي في الجنائز ، وغيرها أنّ ملك الموت كان يقبض الأرواح بغير وجع ، فسبّه الناس ولعنوه ، فشكا إلى ربه ، فوضع الله الأوجاع ، وفي رواية قال : كان ملك الموت يظهر للناس ، فيأتي للرجل ، فيقول له : اقض حاجتك ، فإني أريد أن أقبض روحك ، فشكا الناس من ذلك ، فأنزل الله الداء ، وجعل ملك الموت يأتي خفية ، أهـ . من الدر المنثور⁵ .

¹ كتب : لأنها شعبة متعلقة بالقلب ، وما أثبتناه من كتاب التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، للقرطبي .
² قال القرطبي في كتاب التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة : لم أجد لهذه الحربة في الأخبار ذكر إلا ما ذكره أبو نعيم الحافظ . قال : حدثنا أحمد بن عبد الله بن محمود قال : حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى قال : حدثنا سلمة بن شبيب ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل قال : إن لملك الموت عليه السلام حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب ، فإذا انقضى أجل عبد من الدنيا ، ضرب رأسه بتلك الحربة وقال : الآن يزار بك عسكر الأموات .

³ الدر المنثور في التفسير بالماثور ، للسيوطي 11/682

⁴ أبو الشيخ الإمام الحافظ الصادق ، محدث أصبهان أبو محمد ، عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان ، المعروف بأبي الشيخ ، صاحب التصانيف . ولد سنة أربع وسبعين ومائتين . ولأبي الشيخ : كتاب السنة ، وكتاب العظمة ، وكتاب السنن ، وكتاب ثواب الأعمال . وغير ذلك . قال أبو نعيم : كان أحد الأعلام ، صنّف الأحكام والتفسير ، وكان يفيد عن الشيوخ ، ويصنف لهم ستين سنة . قال : وكان ثقة . توفي في سلخ المحرم سنة تسع وستين وثلاث مائة

⁵ الدر المنثور في التفسير بالماثور ، للسيوطي 11/683

فائدة ثالثة :

يدبر أمور الدنيا أربعة من الملائكة : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ،
فجبريل عليه السلام وكلّ بالدنيا بأمور، منها : الوحي، وإنزال الكتب إلى المرسلين ، والهلكات ،
إذا أراد الله أن يهلك قوما ، والحروب ، والخسوف ، والزلازل ، والرياح .
ووكّل ميكائيل بالقطر ، والنبات ، وورد في الحديث أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر
من ولد آدم ، وولد إبليس ، يحصون كل قطرة نزلت ، وأين تقع ، ومن يُرزق من ذلك النبات¹ ،
وفي حديث آخر : ليس من خلق الله أكثر من الملائكة ، ما من حبة تنبت إلّا وملك موكل بها .
ووكّل إسرافيل عليه السلام باللوح المحفوظ ، ينزل على جبريل وميكائيل ، وملك
الموت بما يؤمرون به ، فينزل على كل منهم بالذي يؤمر به في ذلك الوقت [32] .
ووكّل ملك الموت بقبض الأرواح ، إذا قبضها ملك الموت دفعها إليهم ، فيصعدون بها
إلى السماء ، قيل : وملك الموت موكل بالسحاب يسوقه ، وملك موكل بقلوب الخزوين ، يسلّ
الحزن من قلوب بني آدم ، وملك موكل بأرواح المؤمنين ، إذا قبضت تُدفع إليه ، فيكون هو
خازنها ، وملك موكل بأرواح الكفار كذلك ، وملك موكل بالجبال ، وملك موكل بالظل ،
وملك منهم موكل بالأرحام ، إذا وقعت فيها النطفة ، وملك موكل بالجنين إذا قام الأمر ، رفع
رأسه ، ولولا ذلك لغرق في الدم ، وملك موكل بقبر النبي صلى الله عليه وسلم ، يبلغه الصلاة
من أمته ، وملك موكل بالجمار يرفعها ، ولولا ذلك لصارت مثل الجبال ، والحافظان اللذان
يكتبان أعمال بني آدم ، وملك موكل بقاموس البحر ووسطه ، إذا وضع رجله فيه خاض ، وإذا
رفعها غاص ، ولم موكل بالليل ، يدليّ فلا تغرب الشمس حتى تراه ، وملك موكل بالنهار ،
يدليه ، فلا تطلع الشمس حتى تراه ، وملائكة موكلون بالشمس ، وملائكة يكتبون ما يسقط
من ورق الأشجار ، وما من شجرة رطبة ولا يابسة ، ولا موضع إبرة ، إلّا وملك موكل بها ،
يرفع علم ذلك إلى الله ، ووكّل بقبر النبي ، صلى الله عليه وسلم سبعون ألف ملك ، في كل
صباح ، وسبعون ألف ملك في كل مساء ، يضربون بأجنحتهم ، ويصلون على النبي [33] صلى
الله عليه وسلم ، وملائكة موكلون بأمور لا حاجة لنا بذكرها بعد هذا ، لأن الاختصار أبلغ .
ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

وَعَرُورُ دُنْيَاكَ الَّتِي تَسْعَى لَهَا دَارٌ حَقِيقَتُهَا تَزُولُ وَتَذْهَبُ

قوله : وَعَرُورُ دُنْيَاكَ الَّتِي تَسْعَى لَهَا دَارٌ حَقِيقَتُهَا تَزُولُ وَتَذْهَبُ ، إشارة إلى ذهاب الدنيا ، ونهب
جميع ما جمعته ، وأن نعيمها زائل ، فاتعظ يا هذا بذلك ، ولا تنهمك عليها ، لئلا يخيب سعيك ،

¹ ذكر ذلك ابن جرير ، وقد ضعفه العلماء .

أما ترى كيف صنعت مع أبنائها ، وقد سقتهم بكؤوسها القاتلة ، واستدرجتهم بأضغاث أحلامها الكاذبة ، فراغت عن المواعظ قلوبهم ، ونفرت عن الجواب أسماعهم ، فغرقوا في بحارها ، وأصممتهم بسهام قواتلها في ليلها ونهارها ؛ ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَارْبَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ي ﴾ ¹ ، ولقد أحسن ما قال القائل ، حيث وصف الدنيا ومكائدها ، فقال رضي الله عنه :

أما ترى الدنيا وهذا الورى كمرأة تأكل أولادها²

فحتى ومتى تتمسك بمن هذه صنعته ، وإلى متى على الدنيا إقبالك ، وبشهواتها اشتغالك ، وحتى ومتى تسكن إلى عمارتها ، وتركن إلى الحياة المذمومة ونضارتها [34] ، وما أحسن ما قيل في ذم الدنيا :

أقول وقد سارت بليل حمولها وسائقها فلي وشوقي دليلها

على هذه الدنيا سلام فإنها خلية سوء لا يدوم خليلها

ولقد أحسن القائل : الدنيا أسر ما تكون أضر ما يكون ، وأحلى ما تكون أمر ما يكون . ولقد أحسن القائل ³ :

فَمَنْ يَحْمُدِ الدُّنْيَا لِعَيْشٍ يَسْرُهُ فَسَوْفَ لَعَمْرِي عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُهَا

إِذَا أَدْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً وَإِنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيرًا هُمُومُهَا

وقيل أيضا في ذم الدنيا :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ونال من الدنيا سرورا وأنعما

كبان بنى بنيانه وأقامه فلما استوى ما قد بناه تهدما

الدنيا وهابة نهابة ، سلاية سحارة هرابه ، غدارة فتانة قتالة ، مكاراة خداعة مُحْتَالَة . وما أحسن ما قيل ⁴ :

الدنيا أصلها مدر ، وصفوها كدر ، شرها واقع ، وسماها نافع ، حشوها صبر ، وحلوها مُرّ ، حكمها شطط ، ورضاها سخط ، وإحسانها قرض ، الدنيا ليل نهار نوائب ، وصاحبة المصائب ، ومطاطية العجائب .

وما أحسن ما قيل :

سألت عن الدنيا مرارا فقل لي هي الدار فيها الدائرات تدور

¹ يونس 24

² الذي في مجمع الأمثال ، وجمهرة الأمثال : أما ترى الدهر وهذا الورى * كهرة تأكل أولادها

³ من الطويل ، لعلي بن أبي طالب / الموسوعة الشعرية ، ورواية البيت الثاني :

إِذَا أَقْبَلَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً وَإِنْ أَدْبَرَتْ كَانَتْ كَثِيرًا هُمُومُهَا

⁴ كتب : وما أحسن ما قيل شعر ، وما ذكره ليس شعرا

إذا ضحكت أبكت ، وإن أحسنت أست وإن عدلت يوما فسوف تجور

يا هذا ! خالف نفسك والدنيا والهوى والشيطان ، فإنها [35] من أعظم الأسباب المفسدة لك ، قال الحسن البصري — رحمه الله تعالى : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾¹ ، والله إنها عقبة عظيمة ، وهي مجاهدة النفس والهوى والدنيا والشيطان ، وما أحسن ما قيل :

إني بليت بأربـع يرموني بالنبل قد نصبوا إليّ شراكا
إبليسُ والدُّنيا ونفسي والهوى من أين أرجو بينهن فكاكا

وما أحسن ما قيل في المعنى :

إني بليت بأربـع يرميني بالنبل عن قوس لها توتير
إبليسُ والدُّنيا ونفسي والهوى يا رب أنت على الخلاص قدير²

وما أحسن ما قيل في المعنى :

إني بليت بأربـع ما سلطوا إلّا لعظم مصيبي وشقائي
إبليسُ والدُّنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم اعدائي
إبليس يسلك بي طريق مهالكي والنفس ترميني بكل بلاء
وهو اي يدعوني لميل خاطري في ظلمة التشيت والآراء
وزخارف الدنيا تقول ألم ترى فخري وحسن ملابسي وبهائي
وجنودهم حاطوا بسور مدينتي يغدوا بنا في شدة ورخاء

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — فقال :

وَجَمِيعُ مَا حَصَلَتْهُ وَجَمَعَتْهُ حَقًّا يَقِينًا بَعْدَ مَوْتِكَ يُنْهَبُ

قوله : وَجَمِيعُ مَا حَصَلَتْهُ وَجَمَعَتْهُ ، أي سواء كان من حلال او حرام ، وقوله : حَقًّا يَقِينًا بَعْدَ مَوْتِكَ يُنْهَبُ ، أي تأخذه الورثة وغيرها ، وحسابه عليك ، [36] .

قال يحيى بن معاذ : مُصِيبَتَانِ لِلْعَبْدِ لَمْ يَسْمَعْ الْأَوَّلُونَ ، وَالْآخِرُونَ بِمِثْلِهَا لَهُ فِي مَالِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ . قِيلَ : وَمَا هُمَا ؟ قَالَ : يُؤَخَّرُ مِنْهُ كُلُّهُ ، وَيُسْأَلُ عَنْهُ كُلُّهُ³ .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

تَبًّا لِدَارٍ لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا وَمَشِيدُهَا عَمَّا قَلِيلٍ يُخْرَبُ

¹ البلد 11

² كتب : بالنبل من قوس له توتير ، وما أثبتناه من اليوسي في المحاضرات ، ولم ينسبهما .

³ كتب : : إن مصيبتنا لم يسمع الأولون والآخرون بمثلها ، فقليل له : وما هي ؟ فقال : إن مال الإنسان عند موته يؤخذ كله ، ويسأل عنه كله . وما أثبتناه من الزهد والرقائق ، للخطيب البغدادي . الحديق رقم (11) .

قوله : تَبَّاً لِدَارٍ ، أي حساً لأهل دار يُعَلَّقُوا أحوالهم بالدنيا ، قال البيضاوي : الباب يؤدي إلى الهلاك ، وقوله : لا يَدُومُ نَعِيمُهَا ، أي سواء كان من مأكَل ، أو مشرب ، أو ملبس ، أو مركب ، أو منكح ، أو غير ذلك ، وقوله : وَمَشِيدُهَا عَمَّا قَلِيلٍ يُخْرَبُ ، أي يخرب بناؤها العالي المرتفع على ما في الجلالين ، وذلك بموت أهله ، بانقراضهم ، أو مع وجودهم ، كما قال في التفسير ، في قوله تعالى : ﴿ فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا ¹ ﴾ ، أي قصراً ، وقال أهل التفسير : لمَّا أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح ، جمع هامان العمال والفعلة ، حتى اجتمع عنده خمسون ألف بناء ، سوى الأتباع والأجراء ، وطبخ الآجر والجص ، ونجر الخشب ، ويضرب المسامير ، وأمر بالبناء ، فبنوه وشيّدوه ؛ حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بانيان أحد من الخلق ، فأراد الله عز وجل أن يفتنهم فيه ، فلمَّا فرغوا من بنائه ارتقى فرعون فوقه ، وأمر بنشابة ، فرمى بها نحو السماء ، فرُدَّتْ إليه وهب مُلْطَخَةٌ دما ، فقال : قد قتلت إله موسى ، وكان فرعون يصعد راكباً على البراذين [37] فبعث الله تعالى جبريل عند غروب الشمس ، فضربه بجناحه ، فقطعه ثلاث قطع ، فوقعت قطعة منها على عسكره فقتلت منهم ألف ألف رجل ، ووقعت قطعة منها في البحر ، وقطعة في المغرب ، فلم يبق أحد عمل فيه شيئاً إلا هلك ، أهـ . خازن ² .

وأعجب ما حكى عن قصر بلقيس أنها أمرت به ، فجلب إليها خمس مائة أسطوانة من الرخام ، طول كل أسطوانة خمسون ذراعاً ، وأمرت بها ، فُنْصِبَتْ على تل قريب من مدينة صنعاء ، وجعلت بين كل أسطوانتين عشرة أذرع ، ثم جعلت فوقه سقفاً مبسوطةً بألواح الرخام ، ولحمت بعضها إلى بعض بالرصاص ؛ حتى صارت كأنها لوح واحد ، ثم بُني فوق ذلك قصر مربع من آجر وجص ، وجعلت في كل زاوية من زواياه قبة من ذهب ، مشرفة في الهواء ، وفيما بين ذلك مجالس حيطانها من ذهب وفضة مرصعة بألوان الجواهر ، وجُعل فيه شرفة مطلية بماء الذهب الأحمر ، مفصصة بألوان الجواهر ، فكانت الشمس إذا طلعت على ذلك القصر التهب الذهب والجواهر كالتهاب النيران ، فيكاد تعشى منه العيون ، وتحار منه الأبصار ، وجُعل باب ذلك القصر مما يلي المدينة بدرج من الرخام الأبيض والأخضر والأحمر ، وفي جواره حجر لبوابيها وحُجَّابُها وحراسها وخدمها على قدر مراتبهم ، وصفة عرشها كان مقدمه من ذهب [38] مفصص بالياقوت الأحمر ، والزمرد الأخضر ، ومؤخره من فضة بيضاء ، مكلل بألوان الجواهر ، وله أربع قوائم : قائمة من ياقوت أحمر ، وقائمة من لؤلؤ أبيض ، وقائمة من زمرد أخضر ، وقائمة من دُرٍّ ، قيل : وصفائح السرير من ذهب ، وعليه سبعة أبيات ، على كل بيت : باب مغلق ، وكان ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً ، وكان ارتفاعه مثل ذلك في الهواء ثمانين ذراعاً ، وذلك

¹ القصص 38

² تفسير الخازن / سورة القصص 3/365

قوله تعالى : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾¹ ، أي سرير² ، وكانت هي وقومها يعبدون الشمس من دون الله عز وجل ، فيسجدون لها إذا طلعت ، وإذا غربت ، انتهى . زواج .

وأعجب ما حُكي عن وهب بن منبه — رضي الله تعالى عنه — أنه قال : قرأت في بعض كتب الأنبياء ، فرأيت فيها أنّ الله تعالى أنطق لعيسى جمجمة ، فقالت : يا روح الله ! أنا عشت من العمر ألف سنة ، وافتضضت ألف بكر ، وولد لي ألف ولد ذكورا ، وافتتحت ألف مدينة ، وهزمت ألف جيش ، وقتلت ألف جبار ، انتهى ، من مصابيح الأسرار .

ومن العجائب ما حكي عن قسطنطينية ، دار ملك الروم ، وفتحتها من أشراط الساعة ، وتسمى بالرومية ، كان ارتفاع سورها إحدى وعشرين ذراعا ، قيل : وكنيستها مستطيلة ، وبجانبيها عمود عالٍ ، في دور أربعة أبواب تقريبا ، وفي رأسه فرس [40]³ من نحاس ، وعليه هيئة فارس ، في إحدى يديه كرة من ذهب ، وقد فتح أصابع يده الأخرى مشيرا ، وهو صورة قسطنطين ، قاله في القاموس ، أهـ . فانظر كيف يُبيدها الموت وأهلها .

وأغرب من هذا صفة سرادق كنيسة بطليموس ، مدينة البهنسا⁴ ، كان طوله سبعة وستون ذراعا ، وارتفاعه عشرون ذراعا ، وكان على أعمدة من الخشب المصفح بالذهب والفضة ، وهو من الحرير الملون بالأزرق والأحمر والأصفر والأسود ، مقصبة بقضبان الذهب

¹ النمل 23

² نهاية الأرب للنويري 16/51

³ قفز الناسخ في الترقيم عن الرقم (39) ، وقد أثّرنا أن نبقي على ترقيم الناسخ .

⁴ مدينة البهنسا هي إحدى أشهر المدن الأثرية في محافظة المنيا بجمهورية مصر العربية وتعد من أجمل القرى ، وتقع القرية على بعد 16 كيلو متر من مركز بني مزار ناحية الغرب وهي مدينة أثرية قديمة ، عثر فيها على الكثير من البرديات التي ترجع إلى العصر اليوناني الروماني . وعنها يقول المؤرخون العرب إنها كانت عند فتح مصر مدينة كبيرة حصينة الأسوار لها أربعة أبواب ولكل باب ثلاثة أبراج ، وإنها كانت تحوى الكثير من الكنائس والقصور . وقد ازدهرت في العصر الإسلامي ، وكانت تصنع بها أنواع فاخرة من النسيج الموشى بالذهب . وتحتوي مدينة البهنسا على آثار من مختلف العصور التي مر بها التاريخ المصري حيث تشتمل هذه القرية على الآثار الفرعونية واليونانية والرومانية والقبطية والإسلامية حتى آثار التاريخ الحديث متواجدة متمثلة في المباني والقصور التي يرجع عمرها إلى أكثر من مائة عام . كانت هذه البلدة ذات أسوار عالية وحكمها حاكم روماني جبار يسمى بطليموس وكانت له فتاة ذات حسن وجمال ، ومن شدة جمالها أطلق عليها بهاء النساء ومن هنا سميت البلدة بـ " البهنسا " ومن المعالم التاريخية الموجودة فيها شجرة مريم (عليها السلام) ، وسميت كذلك لأنه يقال أن السيدة مريم جلست تحتها والسيد المسيح و يوسف النجار (عليهم السلام) ، عندما كانوا في رحلة إلى صعيد مصر . وقد شهدت البهنسا صفحات مجيدة من تاريخ الفتح الإسلامي لمصر ، حيث يُطلق عليها مدينة الشهداء لكثرة من استشهد فيها خلال الفتح الإسلامي ففي عام «22 هجرية» أرسل «عمرو بن العاص» جيشا لفتح الصعيد بقيادة «قيس بن الحارث» وعندما وصل إلي البهنسا، كانت ذات أسوار منيعة وأبواب حصينة، كما أن حاميتها الرومانية قاومت جيش المسلمين بشدة، مما أدى إلي سقوط عدد كبير من الشهداء المسلمين .

والفضة ، مزمكة باللؤلؤ ، وفيه تصاوير من داخله على صور سائر أجناس الطيور والوحوش ، وغير ذلك ، وفيه من الفرش الحرير الملون بسائر الألوان ، وفيه من البسط والمساند ما لا ينبغي وصفه إطناب ، السراشق من الحرير الملون ، مرقومة ، لها سبائل من عاج وأبنوس في حلق من الذهب والفضة ، ومن داخله مقعد طوله سبعة أذرع ، في عرض خمسة أذرع ، وارتفاعه مثل ذلك ، يُصعد إليه بدرج من خشب مصفح بالذهب والفضة ، وعليه فرش من حرير ، ووسائد ومساند ، وحوله ثمانون كرسيًا مصفحًا بالذهب ، وسائر أصناف الجواهر ، يجلس عليها أرباب الدولة ، وأصحاب الصولة ، حدث بذلك جماعة من الصحابة ، رضي الله عنهم ، ممن شهد الفتوح ، والسراشقات [41] لما هرب وتركها ، ودخل المدينة ، بعد أن نصب لمقاتلة المسلمين ، وبعد أن نصب من الخيام والسراشقات ما لا يوصف .

فاعلم أيها المفتن بالدنيا وبنائها العالي ، فلو تذكرت النفخ في الصور ، لشغلك عن بناء القصور ، ولو تذكرت يوم يكون الناس كالقراش ، لشغلك عن الكسب والمعاش ، ولو تذكرت يوما لا تسمع فيه إلا همسا ، لما نلت من الدنيا لذة ولا لمسا ، ولو تذكرت يوم يكون الناس كالعهن المنفوش ، لما لبست المعلم والمنقوش ، ولو تذكرت الميزان ، للزمت الهموم والأحزان ، ولو تذكرت مقطعات النيران لما لبست المعلم والكتان ، ولو تذكرت تصرم الآجال ، وما بين يديك من الأهوال ، وما أعد لك من النكال والأغلال ، لما قصرت عن الأعمال ، وهجرت قبائح الفعال ، ولو تذكرت طول الوقوف ، ما آوتك الظلال والسقوف ، ولو تذكرت طول الحساب ، لما افتخرت بالأحساب والأنساب ، ولو تذكرت رقة الصراط ، لطويت البساط ، ولو تذكرت النيران ، لهجرت العصيان ، وما أحسن ما قيل في الوعظية :

أموت وتبلى في التراب عظاميه	وتبقى ذنوبي في الكتاب كما هيه
وأعرض غريانا على السيد الذي	رآني على جهلي وقبح فعاليه
وينشر لي رسم الكتاب ممثلا	فكم فيه من فعل قبيح وداهيه
[42] وتُحصى ذنوبي ثم تبدو فضائحي	ويحضر ميزان هنا والزبانيه
فإن رجع الميزان كنت مُسلما	وإن نقص الميزان طأطأت رأسيه
لي الويل إن أهملت بعد تعلقي	بجل الرجا أو سَعُرت لي حاميه
لها غضب في أخذها وفضاظة	إذا طلعت في أخذ عاص وعاصيه
ولا ترحم المأخوذ في وقت أخذها	ولا تشني عن نحو باك وباكيه
ويُعرض مولانا الكريم بوجهه	فيا شؤم حظي عنده وافتضاحيه
إذا قال عبدي لم تراقب مشاهدي	وخالفت أمري مرة وثانيه

ألم أُسِغَ النعما عليك تَكْرَماً فقايلت نعماي بقبح فعاليه
ولا حجة لي يوم أطلب بالعمل لقد خاب عبد حاله مثل حاله
فسهّل عليّ العرض ري تكرما ولا تَفْضَحَنّي عند نشر كتابيه
سألتك ري بالحبيب محمد شفيع الوري من كل عاص وعاصيه

[43] فاعتبر يا هذا بمن مضى من أسلافك ، وبمن واريته تحت التراب من أمثالك ، كيف
اختلستهم أيدي المنون ، وفنتهم قرونا بعد قرون ¹ ، وأنستك الدنيا عهودهم ، ومزق الزي
جلودهم ، وأيتم الموت أولادهم ، وفرّق في الوري عيالهم ، وأبطل ما صنعوا ، وبدد ما جمعوا ،
ونادى عليهم : أنا هادم اللذات ، أنا مفرّق الإخوة والأخوات ، وسالب الآباء والأمهات ، وما
أحسن ما قيل ² :

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها محاسنهم فيها بوال دوائر
خلّت دورهم منهم جميعا وأنفدت وساقتهُم نحو المنايا المقادرُ
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها وضَمَّهم تحت التراب المقابر
أمسوا رميماً في التراب وعطّلت مجالسهم منهم وأخلى مقاصرُ
وحلوا بدار لا تراور بينهم وآتَى لسكّان القبور التراورُ
فما إن ترى إلّا قبوراً ثروا بها مسطّحة تسفي عليها الأعاصرُ
وأنت على الدنيا مكبّ منافسُ خُطّابها فيها حريصٌ مكاثِرُ
على خطرٍ تسمي وتصبح لاهباً أتدري بماذا لو عقلت تخاطرُ

[44] وقيل إن بعضهم خرج يوماً إلى زيارة القبور ، وأنشد يقول :

إنّ الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها يا من يعد عليك اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلا في النقص منهمكا وأنت دهرك في اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لعزته ولا الذي كان منه العلم يُقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به عن الجواب لسانا ما به خرس
قد كان قصرك معموراً له شرف فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

خاتمة :

¹ كتب : وأفتنتهم قرونا بعد قرونا

² هذه قصيدة من البحر الطويل ، وعدد أبياتها (55) بيتاً ، وقد نسبت لعلي بن الحسين (38 - 94 هـ)
:علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي، أبو الحسن، الملقب بزين العابدين. وقد اجتزأ
المصنف منها هذه الأبيات ، وغير وبذل في كلماتها ، وقد أثبتناها كما هي في ديوانه / الموسوعة الشعرية .

قال لقمان لابنه : يا بُني بعْ دنياءك بأخراك ترجهما ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، تخسرهما جميعا .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنّ الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء : جزء للمؤمن ، وجزء للكافر ، وجزء للمنافق ، فالمؤمن يتزود ، والمنافق يتزین ، والكافر يتمتع ، فبادروا رحمكم الله تعالى [45] إلى الخيرات ، فإنّ الخير كله في البدار ، واستمسكوا بالعروة الوثقى من التقوى ، فإنّ ذلك ينجي من جميع الأخطار ، نجّانا الله وإياكم من أخطار الدنيا والآخرة ، وأعطانا الله وإياكم ما نرجوه من نعمه الباطنة والظاهرة ، وهدانا الله وإياكم إلى صراط مستقيم بتوفيقه وفضله العميم .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — يبالغ في النصيحة بقوله :

فَاسْمَعْ هُدَيْتَ نَصَائِحاً أَوْ لَا كُهَا حَبْرٌ لَيْبٌ عَاقِلٌ مَتَأَدَّبٌ

قوله : فَاسْمَعْ ، معطوف على فذع الصبا ، وما بعده ، وقوله : هُدَيْتَ ، أي هداك الله تعالى إلى ما يُرضيه ، وبينه لك ، وذلك عليه ، قال في مطالع الأنوار : اللهم اهديني ، أي بين لي ، ودلني على ما يرضيك ، واهدنا الصراط المستقيم بمعين ثبتنا عليه عند المرور عليه ، انتهى .
وقوله : نَصَائِحاً ، جمع نصيحة ، وسيأتي الكلام عليها ، وقوله : أَوْ لَا كُهَا ، أي أولاك عليها ، وأعطاه لك كاخسوسة ، وذلك عليها لما تقدم من ضياع العمر واللهم ، وكذا من ذهاب الشباب ، كما سيأتي ، قوله : حَبْرٌ ، وهو العالم ، أو الصالح — بفتح الحاء وكسرهما — كما في القاموس ، قوله : لَيْبٌ ، وهو العاقل ، قوله : مَتَأَدَّبٌ : وهو كثير الأدب .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

ذَهَبَ الزَّمَانُ حَقِيقَةً بِتَصَبُّرٍ وَإِلَى الْأُمُورِ سَبَائِبٌ وَتَعَقُّبٌ¹

قوله : ذَهَبَ الزَّمَانُ حَقِيقَةً ، أي انقضى ، وقوله : بِتَصَبُّرٍ ، أي بعقل وافر ، واع ملتفت بسمعك وبصرك ، إلى غير ما أرشدتك [46] إليه من قبول النصائح ، قوله : وَإِلَى الْأُمُورِ سَبَائِبٌ وَتَعَقُّبٌ ، أي أنّ الأمور الصالحة تكون سببا لعاقبة الخير ، وعكسه لعكسه .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

أَهْدَى النَّصِيحَةِ فَاتَّعِظَ بِمَقَالِهِ إِذَا كَانَ أَعْلَمَ بِالْأُمُورِ وَآدَبٌ²

¹ رواية هذا البيت في الديوان المطبوع :

صَحِبَ الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ مُسْتَبْصِرًا وَرَأَى الْأُمُورَ بِمَا تَوَوَّبُ وَتَعَقَّبُ

² ورد هذا البيت في الديوان على النحو التالي :

أَهْدَى النَّصِيحَةِ فَاتَّعِظَ بِمَقَالِهِ فَهُوَ النَّقِيُّ اللَّوْدَعِيُّ الْأَدْرَبُ

كما أنّ الشارح حول الصيغة إلى الأمر ، فقال : أهدِ النصيحة و واتعظ بمقالها ، والواضح أن فاعل أهدى هو الحبر الوارد في البيت المتقدم .

قوله : أهدى النصيحة¹ ، أي دلّ عليها ، قال ابن حجر : النصيحة هي لغة : الإخلاص والتصفية لمن نصحت له ، وشرعا : إخلاص المرء من الغش للمنصوح ، وقوله : فَاتَّعِظْ بِمَقَالِهِ² ... الخ ، هذه جملة حالية ، ومعناه لما قال لك في الأبيات المتقدمة من ضياع العمر واللعب واللهو والهوى ، ومن ذهاب الشباب الذي لم يتعوض ، ومن مناقشة الحساب ، وعن النفس ، وإحصائه عليك ، وغير ذلك ، وفي إهدائه للنصيحة إشعار بأنه يجب الخير إلى غيره لما ورد : [لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه]³ ، ولأن النصيحة فرض كفاية ، لأنها لازمة على قدر الطاقة ، إذا علم الناصح أن المنصوح يقبل نصحه ، وبطبيع أمره ، وفي كلام ابن حجر ، لا يشترط علم المعلم بقبول النصح ، انتهى . ولا بدّ من علم الناصح بوجه النصيحة .

تنبيه :

ورد في الحديث الشريف عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : [الدّين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم]⁴ ، فالنصيحة لله تعالى معناها منصرف إلى الإيمان به ، ونفي الشرك عنه ، وترك الإلحاد في صفاته ، ووصفه بصفات [47] الكمال والجلال ، وتنزيهه عن جميع النقائص ، والقيام بطاعته ، واجتناب معصيته ، والحب فيه ، والغضب منه ، وموالاته من أطاعه ، ومُعَادَاة مَنْ عصاه في الأمور كلها ، والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة ، والحث عليها بالتلطف في جميع الناس .

قال الخطابي : وحقيقة هذه الأوصاف راجعة إلى العبد في نصحه ، فإن الله تعالى غني عن نصح الناصح ، والنصيحة لكتاب الله تعالى مفرد مضاف ، يعم سائر كتبه المنزلة ، كما في ابن حجر ، فالإيمان به ، بأنه كلام الله تعالى ، وتنزيله لا يُشبه شيئا من كلام الخلق ، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق ، وكذا تعظيمه وتلاوته حق تلاوته ، وتحسينها ، والخشوع عند سماعه ،

¹ كتب في الحاشية : قوله أهدى النصيحة : أي لأنّ شأن المهدي والناصح (كتب : المنصح) أن يكون في نفسه مهديا ومنصوحا عاملا بما ينصح به أخاه ، وإلا لما قبل منه ، وكان حينئذ معيبا مذموما ، كما قال الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره
أبدأ بنفسك فانها عن غيها
هلا لنفسك كان ذا التعليم
فإذا انتهت عنه فانت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفي
بالقول منك وينفع التعليم

وقال تعالى : [اتأملوا الناس بالبر وتسنوا أنفسكم] (البقرة 44) .
وقوله : إذا كان أعلم ... الخ ، والمعنى : مر بالمعروف أخاك حال كونك عاملا به ، إذا كنت أعلم بالأمور وأدرى بها ، لأنّ عملك بالنصيحة شرط لقبولها منك ، والله أعلم ، اهـ . كاتبه
ولا غبار على كلام الشيخ الشارح رحمة الله عليه ، لأنك إذا طالعت كلامه ، وفهمت وجدت حل المتن مستوفيا ، اهـ .

² كتب : بمقالها ، وما أثبتناه من الديوان .

³ الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير ، للسيوطي 3/336 (13819) ، ونصه : [لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه]

⁴ الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير ، للسيوطي 1/279 (3037) .

وإقامة حروفه في التلاوة ، والذبّ عنه لتأويل المحرّفين ، وتعرّض الطاغين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه ، وتفهم علومه وأمثاله ، والاعتبار بمواعظه ، والتفكّر في عجائبه ، والعمل بحكمه ، والتسليم بمتشابهه ، والبحث عن عمومه وخصوصه ، وناسخه ومنسوخه ، ونشر علومه ، والدعو¹ إليه ، وإلى ما ذكرناه من نصحه .

وحُكي أنّ رجلا نصرانيا كتب ثلاث نُسخ من كتبهم ، وزاد فيها ونقص ، ودخل بها الكنيسة ، لبيعها على النصارى ، فأخذوها منه ، ثم كتب أيضا ثلاث نسخ من القرآن ، وزاد فيها ، ونقص ، ودخل [48] بها سوق المسلمين ، لبيعها عليهم ، ففتحوها ، فوجدوها محرّفة ، فردّوها عليه ، فعلم أنّ دين محمد صلى الله عليه وسلم حقّ ؛ لحرص أمته على ما جاء به ، فأسلم لوقتته ، وحسن اسلامه² .

وأما النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتصديقه على الرسالة ، والإيمان بجميع ما جاء به ، وطاعته في أمره ونهيّه ، ونصرته حيا وميتا ، ومُعَاذَة مَنْ عَادَاه ، وموالاته من والاه ، وإعظام حقه ، وتوقيره ، وإحياء طريقته ، أي سنته ، وبث دعوته ، ونشر سنته ، والتفقه في معانيها ، والدعوة³ إليها ، والتطلب في تعلمه وتعليمه ، وإعظامها وإجلالها ، والتأدب عند قراءتها ، والإمساك عنها بغير علم ، وإجلال أهلها ؛ لانتسابهم إليها ، والتخلّق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، ومَحَبَّة أهل بيته وأصحابه ، ومجانبة مَنْ ابتدع في سُنَّته ، أو تعرّض لأحد من أصحابه ، ونحو ذلك ، اهـ .

وأما النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم ، فمنها : معاونتهم على إقامة الحق ، وطاعتهم فيه ، وأمرهم به⁴ ، وتذكيرهم عليه برفق ، وإعلامهم بما غفلوا عنه .

ومن النصيحة لهم أيضا الصلاة خلفهم ، والجهاد معهم ، وأداء الصدقات إليهم ، وترك الخروج بالسلاح عليهم ، إذا ظهر منهم حيف ، أو سوء عِشْرَة ، وأن يدعو لهم بالصلاح ، هذا كله على أنّ المراد [49] بأئمة المسلمين هم الخلفاء وغيرهم ، ممن يقوم بأُمُور المسلمين من أصحاب الولايات ، وهذا هو المشهور ، وقد يتأوّل ذلك على الأئمة الذين هم علماء الدين ، لأنّ مِنْ نُصَحهم قبول ما رَووه ، فيحق تقليدهم في الأحكام ، وإحسان الظن بهم .

وأما نصيحة عامة المسلمين ، وهم ما عدا ولادة الأمور ، فهو إرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ، وكفّ الأذى عنهم ، وتعليمهم ما يجهلون من أمر دينهم ودنياهم ، وإعانتهم عليه

¹ كتب : والدعاء ، وهذه عبارته في كثير من المواضع .

² تحدث المصنف عن نسخ كتب النصارى والقران الكريم بصيغة من يعقل ، فقال على سبيل المثال لبيبيهم ، ففتحوهم ، وقد صوبنا ما قاله .

³ كتب : والدعاء .

⁴ كتب : وأمرهم به ، ونهيهم

بالقول والفعل ، وستر عوراتهم ، وسدّ خلتهم ، ودفع المعارض عنهم برفق ، وإخلاص الشفقة عليهم ، وتوقير كبيرهم ، ورحمة صغيرهم ، وترك غشهم ، وتجنب حسدهم ، وأن يُحب لهم ما يُحب لنفسه من الخير ، وأن يكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه ، والذبّ عن أموالهم ، وعن أعراضهم ، وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل ، وحثّهم على التخلّق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة ، وتنشيط همهم إلى الطاعات ، وقد كان في السلف ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين من تبلغ به النصيحة إلى الإضرار ، ولم يُبال بذلك .

قال ابن حجر : كان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سراً ، حتى قال بعضهم : مَنْ وعظ أخاه سراً فهي نصيحة ، وَمَنْ وعظه على رؤوس الناس ، فهي [50] وبخة .
وقد تكون النصيحة فرض عين ، وقد تكون على الكفاية .
ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

لا تَأْمَنِ الدَّهْرَ الْخَوْنَ فَإِنَّهُ مَا زَالَ قَدَمًا لِلرِّجَالِ مُقَلَّبٌ

قوله: لا تَأْمَنِ الدَّهْرَ الْخَوْنَ، إشارة إلى أنّ الدهر هنا الزمان ، الذي من شأنه التقلب، والخفض ، والرفع لأهله ، ونسبة الخيانة إلى الدهر مجاز ، لأنه اللفظ المستعمل في غير ما وضع له ، لأنه نزل منزلة ذي العقل ، كما قال بعضهم¹ :

الدهر كالميزان يرفع ناقصاً جهلاً ويخفض زائد المقدار
وإذا انتفى الإنصاف عاد لعدله في الوزن بين حديدة ونقار

وقوله : مَا زَالَ قَدَمًا — بكسر القاف وسكون المهملة — يعني قديماً بالنسبة للحوادث ، وقوله : لِلرِّجَالِ مُقَلَّبٌ ، أي للرجال الجبارة ، وغيرهم مذلة لأنفسهم ، كما قال بعضهم في المعنى :

وَمَنْ يَأْمَنِ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ عَلَى الْمَاءِ خَائِتُهُ فُرُوجُ الْأَصَابِعِ²

وقال محمد بن علي القصير :

قل للزمان الخؤون وحادثات المنون
قد كنت اخشاك حتى حققت فيك ظنوني
وكان ما كنت أخشى فكيف ما شئت كوني

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — فقال :

وَكَذَلِكَ الْآيَامُ فِي غَدَرَاتِهَا مَرَّتْ يُذَلُّ لَهَا الْأَعَزُّ الْأَنْجَبُ

¹ البيتان من الكامل ، وقد أوردهما الصفدي في الوافي بالوفيات ، والكتبي في فوات الوفيات ، ولم ينسبهما / الموسوعة الشعرية .

² من الطويل ، نسب لعلي بن أبي طالب ، ديوانه / الموسوعة الشعرية .

قوله : وَكَذَا الْآيَامُ فِي غَدَرَاتِهَا¹ ، أي الغدرات الواقعة فيها [51] وَذِكْرُهَا بَعْدَ الدَّهْرِ تَخْصِصٌ بَعْدَ تَعْمِيمٍ ، وَالْمَعْنَى لَعْدَمِ أَمْنِهَا ، وَقَوْلُهُ : يُذَلُّ لَهَا الْأَعَزُّ الْأَنْجَبُ ، أي يذلُّ لها العزيز في قومه ، كما قال بعضهم في المعنى :

ومن عادة الأيام أن صروفها إذا سرَّ منها جانب ساء جانب
وما أعرف الأيام إلا ذميمة ولا الدهر إلا وهو للثَّار طالب²

فائدة :

فإن قيل : كيف سَمِيَ الحق سبحانه وتعالى نفسه بالدهر ، في غير هذا المحل ، وهو في الأزل والأبد اللذين هما الأول والآخر ، وهما من نعوت الله عز وجل ، بلا شك ، فإنه تبارك وتعالى سَمِيَ نفسه الأول بلا أولية تحكم عليه كالأوليات المسبوقة بالعدم ، لأن ذلك مُحَالٌ في حق الحق ، وكذلك القول في الآخر ، فإنه تبارك وتعالى آخر ، لا بآخرية تحكم عليه نظير اسمه تعالى الأول ، فإن قيل : فما سبب كفر الدهريين على هذا التقدير ؟

الجواب أن سبب كفرهم ثقتهم في الدهر ، الذي جعلوه إلهًا ، أنه زمان فلكي ، إذ الفلك لا حقيقة له في زمان الله تعالى ، الذي لا يتعلق به ، ولو أنهم اعتقدوا الدهر كما قدّرنا ما كفروا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : [يَقُولُ اللَّهُ أَنَا الدَّهْرُ]³ انتهى ، من اليواقيت والجواهر . ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — فقال :

وَالْفَقْرُ شَيْنٌ فِي الرَّجَالِ لِأَنَّهُ يُزْرِي بِمَنْ يَرَعَى الشَّرِيفَ الْأَنْسَبَ⁴

قوله : وَالْفَقْرُ شَيْنٌ ، أي قبيح ، لما ورد عن البيهقي وغيره [52] [كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا]⁵ ، وهو كناية عن عدم المال ، وقوله : يُزْرِي ، أي يؤدي إلى خسة صاحبه ، كما قال بعضهم :

يمشي الفقير وكل شيء ضده الناس تغلق دونه أبوابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة أومت إليه وحركت أذناها
وإذا رأت يوما فقيرا بانسا نبحت عليه وكشرت أنيابها⁶

¹ في الديوان المطبوع : غدواتها .

² أوردها التنوخي في الفرج بعد الشدة دون عزو / الموسوعة الشعرية .

³ المسند الجامع ، لأبي الفضل السيد أبي المعاطي النوري 43/64 (14013) ، ولفظه : عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : [لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : يَا خَيِّبَةُ الدَّهْرِ ، قَالَ اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا الدَّهْرُ ، أُرْسِلَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا ، وَلَا يَقُولَنَّ لِلْعَنَبِ : الْكَرْمُ ، فَإِنَّ الْكَرْمَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ] .

⁴ في رواية :

وَالْفَقْرُ شَيْنٌ لِلرَّجَالِ فَإِنَّهُ يُزْرِي بِهِ الشَّهْمُ الْأَدِيبُ الْأَنْسَبُ

⁵ قال الألباني في السلسلة الضعيفة : 77 / 9 : ضعيف . وهو عند أبي نعيم في "الحلية" [(3/ 53 و 109 و 253 / 8)] ، والبيهقي في "الشعب" [(2/ 486 و 1)] .

⁶ ذكرها الإشبيلي في المستطرف / الموسوعة الشعرية ، وقا إنها لابن الأحنف .

وقوله : بِمَنْ يَرَعَى الشَّرِيفَ ، أي في قومه ، أو غيرهم ، ويحتمل بيان أن يكون خاصا بالشريف
الذاتي الحسيني وغيره .

فائدة :

ينبغي التفطن لها ، وهي : هل الشريف أفضل ، أم العالم أفضل ؟
أجاب شيخ مشايخنا علي الأجهوري¹ بقوله: الشريف أفضل من العالم، بحسب النسب ،
والعالم أفضل من الشريف بحسب العلم ، وفضيلة العلم تفوق عن فضيلة النسب ، ولا شك أن
آية من كتاب الله سبحانه وتعالى ، أفضل من محمد وآل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وسائر
المخلوقات .

وقوله : الأئسبُ ، أي الكبير العالي في النسب وغيره مما يُمدح به ، ويُنسب إليه ، كما قال
بعضهم :

فصاحة حسان وخط ابن مقللة وحكمة لقمان وزهد ابن أدهم
إذا اجتمعت في المرء وهو مُفلس ونودي عليه لا يُباع بدرهم

[53] وقال ابن شاهين² في معنى ذلك :

أواه من فعلي وحالي العجيب ما أظن بعد الفقر حالي يطيب
فقر الفتى مُذهب لأنواره كما تُغيّر الشمس عند المغيب
ويدخل الأسواق مستغنيا وفي الغلا يبكي بدمع صيب
والله ما الإنسان بين أهله إذا بلغ الفقر قالوا غريب

وقال غيره :

مَن كان يملك درهمين تعلمت شفتاه أنواع الكلام فقال
وتقدم الإخوان فاستمعوا له ورأيتَه بين الورى مختالا
لولا دراهمه التي في كيسه لرأيتَه أسوا البرية حالا

¹ الأجهوري (967 - 1066 هـ) : علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي، أبو الارشاد، نور الدين الأجهوري: فقيه مالكي، من العلماء بالحديث. مولده ووفاته بمصر. من كتبه : شرح الدرر السنية في نظم السيرة النبوية ، و النور الوهاج في الكلام على الاسراء والمعراج ، و الاجوبة المحررة لاسئلة البررة - فقه، و المغارسة وأحكامها ، و شرح رسالة أبي زيد - فقه، و مواهب الجليل - في شرح مختصر خليل، فقه، و غايه البيان - في إباحة الدخان، و شرح منظومة العقائد - في التوحيد، و الزهراء الوردية - مجموعة فتاويه، جمعها أحد تلاميذه، و فضائل رمضان - شرح فيه آية الصوم، و شرح مختصر ابن أبي جمرة - في الحديث، و مقدمة في يوم عاشوراء ، وغير ذلك . الأعلام ، للزركلي 14/5-13

² ابن شاهين (297 - 385 هـ) : عمر بن أحمد بن عثمان ابن شاهين، أبو حفص: واعظ علامة، من أهل بغداد. كان من حفاظ الحديث. له نحو ثلاثمائة مصنف، منها : كتاب السنة. سماه صاحب التبيان «المسند» وقال: ألف وخمسمائة جزء، و التفسير- في نحو ثلاثين مجلدا، و تاريخ أسماء الثقات ممن نقل عنهم العلم - على حروف المعجم، و معجم الشيوخ ، و الأفراد، و كشف الممالك ، و ناسخ الحديث ومنسوخه ، و الترغيب في فضائل .

[54] فِي الْكَلَامِ لِمَنْ أَرَادَ فَصَاحَةً
 إِنَّ الْغَنِيَّ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْخَطَا
 قَالُوا صَدَقْتَ وَمَا نَطَقْتَ مَخَالَا
 إِذَا الْفَقِيرُ أَصَابَ قَالُوا كُلَّهُمْ
 أَخْطَأْتَ يَا هَذَا وَقُلْتَ خِلَالَا
 تَكْسُو الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَلَالَا
 وَهِيَ السَّلَاحُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَالَا

تنبيه :

يُستحب للفقير أن يكتفم فقره عن الناس ، بمعنى أنه لا يظهر الفاقة والمسكنة ، ولا يمل ، ولا يتضجر من الفقر ؛ لأنَّ الفقر شعار عباد الله الصالحين ، وزينة لأصفيائه المخلصين ، ويُستحب للفقير أن يتعفف عن سؤال الناس ما أمكن ، لقوله تعالى : ﴿ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾¹ ، ويُستحب له أن يثق بالله ، ولا يجزع من ذلك ، كما قال سدي عبد البرعي² ، رحمه الله تعالى :

يا هائم القلب ثق بالصبر معتصما
 فكل شيء له حد ومقدار
 وان بليت باحكام الزمان فلا
 تجزع فللدهر إقبال وإدبار

واعلم أنَّ الفقر خاص وعام ، فالعام هو احتياج الخلق كلهم إلى الله عز وجل ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾³ ، وأمَّا الخاص فهو الموصوف به خواص عباد الله الصالحين المكرمين ، واختلف العلماء ، رضي الله تعالى عنهم في الفقر والغنى ، أيهما أفضل ، فالأكثرون المحققون على أنَّ الفقر أفضل من الغنى ، هذا إذا كان مقرونا بالرضا ، ولذلك اختاره صلى الله عليه وسلم ، كما قال [55] بعضهم : اللهم أحيني مسكينا ، واحشرنى في زمرة المساكين ، وذهب آخرون إلى أنَّ الغنى أفضل ، واحتج القائلون لذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : [الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى]⁴ ، وقال : [وَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُتَنَفِّعَةُ ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ]⁵ ، والجواب عن ذلك أنَّ اليد العليا تنال الفضيلة بإخراج ما فيها ، واليد السفلى تنال المنقصة بحصول الشيء فيها ، واختلفوا في تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر على خمسة أقوال :

¹ البقرة 273

² البرعي (؟ - 803 هـ) : عبد الرحيم بن أحمد بن علي البرعي اليماني. شاعر، متصوف من سكان (النيابتين) في اليمن. أفتى ودرس وله ديوان شعر أكثره في المدائح النبوية. والبرعي نسبة إلى بُرْع وهو جبل بتهامة (كما ورد في التاج).

³ فاطر 15

⁴ المسند الجامع 11/350 (3454)

⁵ ورد في الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار ، لابن عبد البر ، على النحو التالي : مسألة : عَنْ نَافِعٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمُبْتَرِ ، وَهُوَ يَذْكُرُ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ : " الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُتَنَفِّعَةُ ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ " .

الأول : وهو مذهب الجمهور ، واختاره ابن عطاء ، وابن بطلال ، والعز بن عبد السلام ، والسيوطي ، وابن حجر ، أنّ الغني الشاكر أفضل ، وهو من لا يُبقي مما يدخل عليه من ماله إلاّ ما يحتاج إليه حالا .

ثانيها : وهو مذهب الجنيد ، وجمهور الصوفية ، أنّ الفقير الصابر أفضل .
ثالثها : وهو مذهب الداوودي من أصحاب مالك ، أنّ الكفاف أفضل ، محتجا بأنّ الغنى والفقر محتان يمتحن الله بهما عباده .

رابعها : أنهما مختلفان باختلاف أحوال الناس ، فمنهم من يستقيم حاله على الغنى ، ويفسد على الفقر ، فيكون الغنى خيرا له ، ومنهم من يستقيم حاله على الفقر ، ويفسد على الغنى ، فيكون الفقر خيرا له .

خامسها : الوقف ، وهو أسلم ، انتهى . من شرح الجوهرة [56] الكبيرة ، باختصار ، وقال سيدي علي المنوفي¹ في المعنى ، رضي الله عنه بقوله :

النفس تكره أن تكون فقيرة والفقر خير من غنى يطغيها
فغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع ما في الارض لا يكفيها

وقال الشافعي² ، رحمه الله تعالى :

شَغِلْنَا بِكَسْبِ الْعِلْمِ عَنْ مَكْسَبِ الْغِنَى كَشَغَلِهِمْ عَنْ مَكْسَبِ الْعِلْمِ بِالْوَفْرِ
فَصَارَ لَهُمْ حَظٌّ مِنَ الْجَهْلِ وَالْغِنَى وَصَارَ لَنَا حَظٌّ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفَقْرِ

وقال بعض الفضلاء³ :

ما أَحَسَّنَ الدِّينَ وَالْدُنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا وَأَقْبَحَ الْكُفْرَ وَالْإِفْلَاسَ بِالرَّجُلِ

وقال بعضهم رضي الله عنه :

ان المطايا خيرها الدنيا فكن متمسكا فيها بالخير والشرف
واعمل لمن يكون خيرا زاكيا تخصّ به يوم الجزاء في الغرف

تم أشار المصنف إلى أنّ صاحب المال ، وإنّ كان حقيرا مكروها أين ما حلّ بقوله :

[57] ويفوزُ بالمالِ الحقيرُ مكانةً فتراهُ يُرَجَى مَالِدِيهِ وَيُرْغَبُ

¹ المنوفي (857 - 939 هـ) : علي بن محمد بن محمد بن خلف المنوفي المصري الشاذلي، أبو الحسن: من فقهاء المالكية. مولده ووفاته بالقاهرة. له تصانيف، منها : عمدة السالك - في الفقه، و تحفة المصلي، و غاية الاماني - في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، و كفاية الطالب الرباني - في شرحها أيضا وشفاه الغليل في لغات خليل ، و شرحان على البخاري - أحدهما معونة القاري لصحيح البخاري ، والثاني صيانة القاري عن الخطأ والحن في البخاري - ذكره صاحب نيل الابتهاج ، وله شرح صحيح مسلم ، والجوهرة المعنوية على الأجرومية - نحو . الأعلام 12-5/11

² من الطويل ، وقد نسب البيتان في الموسوعة الشعرية لمحمود الوراق ، وهما في ديوانه .

³ من البسيط ، لأبي العتاهية / ديوانه / الموسوعة الشعرية .

قوله : ويفوزُ بالمالِ ، أي يحصل له النوال بالمال الخبيث ، وقوله : الحقيرُ ، أي الجاهل ، الذي لا أهلية فيه ، ولا كفاءة ، وقوله : مكانة ، أي رفعة عالية عند أبناء الدنيا ، وقوله : فتراهُ يُرجى مالديه ويُرغبُ ، أي يرغب في صحبته ومجالسته ، كما قال الشيخ سليم ، أعني في معنى ذلك شعرا :

تَبَّتْ يَدَا الْأَيَّامِ لَمَّا قَصَّرت كم من عزيز النفس قد حسا
وكم من خسيس الأصل دامت له كأنها عمياء ما أبصرت حسا

وقال بعضهم في معنى ذلك شعرا :

إن كان أعطاك الزمان سعادة غلطا فهاتيك البهائم تُرزق
وكذلك الأصنام وهي حجارة عُبدتْ وليس لها لسان ينطق

وقال بعضهم في هذا المعنى شعرا :

رُمِينَا مِنَ الزَّمَانِ بِسَهْم تقدّم النذل والكريم تأخرا
مات مَنْ عاش بالفضل جوعا وحظي مَنْ يقود أو يتمسخر

وقال بعضهم في معنى هذا شعرا :

عتبت على الدنيا لرفعة جاهل / وتأخير ذي فضل قالت لي العذر [58]
بنو الجهل أنائي لهذا رفعتهم وأهل التقى أبناء ضرتي الأخرى .

وقال ابن الوردي في لاميته :

واطرح الدنيا فمِنْ عَادَاتِهَا تخفضُ العالي وترفع مَنْ سَفَلُ
كم شجاعٍ لم ينلْ منها المنا وجبانٍ نالَ غَايَاتِ الْأَمَلُ

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

وَيَبِشُّ بِالْتَّرْحِيبِ عِنْدَ قُدُومِهِ وَيُقَامُ عِنْدَ سَلَامِهِ وَيُقَرَّبُ

قوله : وَيَبِشُّ بِالْتَّرْحِيبِ عِنْدَ قُدُومِهِ : أي مما يراه من البشرى والقرى ، وسائر أنواع الكرامات ، وقوله : وَيُقَامُ عِنْدَ سَلَامِهِ وَيُقَرَّبُ ، أي يُقام له تعظيما لأجل دنياه ، وما اكتسبه من الشيء الذي هو كالسم القاتل ، لأنه الغالب في المال أن يُطغي صاحبه ، ويؤذيه ، ويجزئه عن فعل الخيرات ، بل أن يتوصل به إلى ما يغضب الله عليه من التكبر والتجبر على الناس ، لأن كثيرا ما يكون كثرة المال سببا له في أخذ أموال الناس بالشوكة تارة ، وفي هذا البيت إشارة إلى قيام السعد به ، وإقباله عليه ، حتى قال بعضهم :

إذا أقبل السعد قم قائما وإن شئت فاصنع من الثلج نارا
وان اخذ السعد فاحمده فما السعد في ذاك إلا جبارا [59]

وقال بعضهم :

وإذا السعادة لاحظت عيونها ثم فالمخاوف كلهن أمان¹

وقال بعضهم في وصف دار :

هذه الدار أضاءت بهجة وتجلت فرقا للناظرين
كتب السعد على أبوابها ادخلوها بسلام آمين

تنبيه :

اعلم أن الله تعالى سَمَّى المال خيرا في بعض مواضع من كتبه المنزلة ، وفي الحديث :
[نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ]² ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك ، حيث
استشاره بالخروج من ماله : [أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ]³ ، وقال قيس بن عاصم
لابنه : عليك بالمال فإنه منهبة للكريم ، وتستغني به عن السؤال للثيم ، وقال صلى الله عليه
وسلم : [إِذَا كَانَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ فِيهَا مِنَ الدَّرَاهِمِ وَالْدَّنَانِيرِ يُقِيمُ الرَّجُلُ بِهَا دِينَهُ
وَدُنْيَاهُ]⁴ وإنما ذمَّ المال أولا ؛ خيفة أن يُطغى صاحبه ويؤذيه ، ويجزئه عن فعل الخيرات ، كما
تقدم ، وقال أبو القاسم الهيثمي⁵ رضي الله تعالى عنه :

المال أفضل ما ادخرت فلا تكن في مرية ما عشت في تفضيله
ما صنَّف الناس العلوم بأسرها إلا لحيلتهم على تحصيله⁶

[60] ثم أشار المصنف إلى أن الشخص ينبغي له أن يقنع بما هو فيه ، فقال :

فَاقْنَعْ فِي بَعْضِ الْقَنَاعَةِ رَاحَةً وَالْيَأْسُ مِمَّا فَاتَ فَهُوَ الْمَطْلَبُ

قوله : فَاقْنَعْ فِي بَعْضِ الْقَنَاعَةِ رَاحَةً ، القناعة هي الرضا بما قسم الله لعبده في الأزل ، قال تعالى :
﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾⁷ وفي آية أخرى ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا ﴾⁸ ، وفي آية

¹ ذكره ابن عرب شاه في فاكهة الخلفاء ، ولم ينسبه ، ومعه بيت آخر ، هو :

واصطد بها العنقاء فهي حبايل واقتد بها الجوزاء فهي عنان

² كتب : نصح المال الصالح للرجل الصالح ، وما أثبتناه ورد بالإسناد المتصل في مسند الإمام أحمد بن حنبل من حديث عمرو بن العاص رحمه الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نِعَمًا بِالْمَالِ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ) ، وروي أيضًا بلفظ : (نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ) وكلتا اللغتين فصيحة نعم ونعمًا .

³ المسند الجامع 34/322

⁴ المعجم الكبير للطبراني 15/214 (17050)

⁵ هو عثمان بن خمارتاش بن عبد الله أبو القاسم ، من أهل هيت ، كان أديبًا فاضلاً ، مليح الشعر ، لطيف الطبع ، كيساً طيب المعاشرة ، ظريفاً ، كان يقدم بغداد أحيانا ، وينزل بالمدرسة النظامية ، وكان متهاوياً بالأمور الدينية. توفي بالرقعة في رجب سنة تسع عشرة وست مائة وقد جاوز الخمسين. ذيل تاريخ بغداد لابن النجار .

⁶ الوافي بالوفيات ، للصفدي ، وفوات الوفيات للكتبي / الموسوعة الشعرية

⁷ الزخرف 32

⁸ الآية التي أشار إليها المصنف : [نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ] ولا علاقة لها بما نحن فيه .

أخرى ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا ﴾¹ ، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : [رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ² . وقضي ما هو كائن إلى يوم القيامة] .

واعلم أنّ ما لم يقسمه الله لعبده ، لا يناله بالقوة والعزم والكد والتعب ، ولو اجتهد في طلبه غاية الاجتهاد ، أو كدّ فيه نهاية الكد ، وأنّ كلّ ما قسم الله لعبده من رزق ، أو أجل ، لا يفوته ، ولا يتعدها ، ولو تكاسل عنه ، أو لم يطلبه أصلا ، ولكنّ المستحب السعي والطلب ، كما ورد في الحديث : [إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ]³ ، وما أحسن ما قيل في المعنى ، فقال :

من رام أن يأخذ الأشياء بقوته يفوته القصد تحقيقا بلا طلب
فائق برزقك إنّ الرزق منقسم يأتي إليك من الرزاق بالسبب

- ¹ سورة ص ، آية 39 ، والآية بتمامها : [هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ] .
- ² أخرجه أحمد في مسنده (1/293 ، رقم 2669) ، والترمذي في سننه (4/667 ، رقم 2516) وقال : حسن صحيح . والحاكم في المستدرک (3/623 رقم 6302) . أما قوله (وقضي ما هو كائن إلى يوم القيامة) فلم أقف عليه في كتب المتون ، ولا في كتب التخریج والزوائد ، والحديث بتمامه : [عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَوْمًا فَقَالَ : يَا غُلَامُ ، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ : أَحْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، أَحْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ ، فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا سَأَلْتَهُ فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ] .
- ³ جاء في كتاب المقاصد الحسنة ، الحديث رقم (221) ما نصه : حديثٌ : " إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ " ، البيهقي في الشعب ، وأبو الشيخ في الثواب ، والعسكري في الأمثال ، من حديث الوليد بن مسلم حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن إسماعيل بن عبيد الله عن أم الدرداء عن أبي الدرداء به مرفوعا ، وهو عند الطبراني ، وأبي نعيم في الحلية ، وكذا رواه القضاعي من هذا الوجه ، بلفظ : الرزق أشد طلبا للعبد من أجله ، ورواه الدارقطني في علله مرفوعا وموقوفا ، وقال : إن الموقوف هو الصواب ، وكذا أورده البيهقي في الشعب موقوفا ، وقال : إنه أصح ، قال : وروي عن عطية عن أبي سعيد بمعناه مرفوعا ، وهو عند الطبراني في الأوسط من حديث علي بن زيد عن فضيل بن مرزوق عن عطية ، ولفظه : لو فر أحدكم من رزقه لأدركه كما يدركه أجله ، ولأبي نعيم في الحلية من حديث جابر مرفوعا : لو أن ابن آدم يهرب من رزقه ، كما يهرب من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت ، وكذا أخرجه العسكري ، ولأبي الشيخ والبيهقي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر رفعه : لا تستبطنوا الرزق ، فإنه لم يكن عبد يموت حتى يبلغه آخر الرزق ، فأجملوا في الطلب ، ولأبي الشيخ من حديث ابن جريج ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، مرفوعا بنحوه ، وحديث ابن المنكدر عند العسكري من حديث الثوري عنه بلفظ : لو أن ابن آدم يهرب من رزقه كما يهرب من الموت لأدركه رزقه ، كما يدركه الموت ، وله من حديث جهم بن مسعدة الفزاري حدثنا أبي حدثنا ابن أبي ذئب ، عن نافع عن ابن عمر رفعه : والذي بعثني بالحق إن الرزق ليطالب أحدكم ، كما يطلبه أجله ، ومن حديث يوسف بن السفر حدثنا عبدة بن أبي لبابة ، عن شقيق عن ابن مسعود مرفوعا : إنه ليس أحد يأكسب من أحد ، قد كتب الله النصيب والأجل ، وقسم المعيشة والعمل ، والرزق مقسوم ، وهو أت ابن آدم ، على أي سيرة سارها ، ليس تقوى تقي بزانه ، ولا فجور فاجر بناقصه ، وبينه وبينه ستر ، وهو في طلبه ، ومن حديث ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن ثوبان مرفوعا : إن الدعاء يرد القضاء ، وإن البر يزيد في العمر ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ { 17 } وَلَا يَسْتَنْتُونَ { 18 } سورة القلم آية 17-18 وبعضها يقوي بعضا ، قال البيهقي عقب أولها : والمراد به والله أعلم ، أن ما قدر له من الرزق يأتيه ، فلا يجاوز الحد في طلبه ، يعني كما جاء في الحديث الآخر : اتقوا الله وأجملوا في الطلب ، وللدليمي بسند ضعيف عن جابر مرفوعا : إن للرزاق حجابا فمن شاء أن يهتك ستره بقله حياء ، ويأخذ رزقه فعل ، ومن شاء بقاء حياته وترك رزقه محجوبا عنه حتى يأتيه رزقه على ما كتب الله له فعل ، وقوله في حديث ابن مسعود : ولا فجور فاجر بناقصه ، يعارض ظاهره ظاهر حديث : إن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه .

وقال بعضهم :

الرزق كالعيش بين الناس منقسم
هذا الذي صير الأبواب حائرة [61]
هذا غريق وهذا يشتكي العطش
وطالب الرزق ما بين الورى دَهِش

وقال بعضهم¹ : شعر .

صحبت بني الدنيا فلم أرَ فيهم
فَجَرَدْتُ مِنْ غِمْدِ الْقَنَاعَةِ صَارِمًا
سوى غادر والغدر حشو ثيابه
فلا ذا يراني واقفاً في طريقه
قطعتُ رجائي منهم بذبابه
غنيّ بلا مالٍ عن الناس كلهم
ولا ذا يراني جالساً عند بابِه
وليس الغنى إلا عن الشيء لابه

وقال بعضهم :

وجدت القناعة رأس الغنى
فلا ذا يراني على بابه
فصرت بأذيالها ممتسك
فألبسي عندها خلقه
ولا ذا يراني به منهمك
فصرت غنياً بلا درهم
يمر الزمان ولا تنتهك
أمر على الناس شبه الملك

وقال عبد الرحمن الداودي² :

إن شئت عيشاً طيباً
فانقع بما أوتيته
صفواً بلا مُنازع
فالعيش عيشُ القانع

[62] ويشهد لصحة معاني هذه الأبيات ، ما قاله الإمام الشافعي ، رحمه الله تعالى :

عزیز النفس من لزوم القناعة
أفادته التجارب كل عز
ولم يكشف لمخلوق قناعة
و هل عز أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال
و صير بعدها التقوى بضاعة
لتغني في حياتك عن لئيم
وتظفر بالنجاة بصبر ساعة
أحبُّ الصالحين و لست منهم
وأرجو أن أنال بهم شفاعة
وأكره من بضاعته المعاصي
و إن كنا سواء في البضاعة³

وقال ابن عباس — رحمه الله تعالى : خمسة أشياء من علامات الساعة : اليقين في القلب ،
والورع في الدين ، والزهد في الدنيا ، والحياء في العين ، ، والخشية في البدن .

¹ نسبها الإبيشيهي للإمام الشافعي .

² الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن مظفر الداودي البوشنحي الشافعي . الوافي بالوفيات ، وفوات
الوفيات / الموسوعة الشعرية .

³ ومنها : نفضت يدي من طمعي وحرصتي
و لا تطع الهوى و النفس و اعمل
وقلت لفاقتي سمعاً وطاعة
من الخيرات قدر الاستطاعة

وقال في أنس المنقطعين¹ :

إذا المرء عوفي في جسمه ومَلَّكه الله قلباً قنوعاً
وألقى المطامع عن نفسه فذاك الغنى وإن مات جوعاً

غيره :

[63] كن قانعاً بيسير أنت واجده واصبر ولا تتعرض للإزادات
فما صفى البحر إلا وهو منتفض وما تكدر إلا بالزيادات

وقال علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه : وضع الله خمسة أشياء : العز في الطاعة ، والذل في المعصية ، والحكمة في البطن الخالي ، والهيبة في قيام الليل ، والغنى في القناعة ، التي أشار إليها هنا . ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — فقال :

وَإِذَا طَمِعْتَ كُسَيْتَ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ فَلَقَدْ كُسِيَ ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ أَشْعَبُ

قوله : وإذا طمعت ، أشار إلى أن الطمع مذموم ، وصاحبه مذلول ، وقيل إن الطمع هو الطلب الزائد فيما يقرب حصوله أو يبعد ، وقيل : يُطلق على الأمل ، كما في المصباح² ، وقوله : كُسَيْتَ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ ، المذلة هي الصغار والهوان ، كما قال الشافعي رحمه الله تعالى .

إذا طمِعَ يَحُلُّ بِقَلْبِ عَبْدِ علته مهانة وعلاه هون
أَمْتُ مَطَامِعِي فَأَرْحَتَ نَفْسِي فإن النفس ما طمِعت قهون
وأحييت القنوع وكان ميتاً ففي إحيائه عرضي مصون

وقوله : فَلَقَدْ كُسِيَ ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ أَشْعَبُ ، أي كسي ثوب المذلة والهوان ، ونسبة الكسوة على سبيل المجاز ، ومثل بأشعب ، لأنه كان أطمع أهل الأرض ، كما حُكي أنه قال : [64] ما رأيت عروساً تُزَفَّ ، إلا وكست بيتي وفرشته ، طمعا في أن تُزَفَّ إليَّ ، فقليل له : ما أطمعك ، وقال : لم أر اثنين يتساران إلا وظننت أنهما يأمران لي بشيء ، وقيل له : هل رأيت أطمع منك؟ ، قال : نعم ، كلب أم حرمل ، تبعني فرسخين وأنا أمضغ كندرا ، ولقد حسدته على ذلك ، وقيل له : ما بلغ من طمعك ؟ فقال : إن أُمِّي أطمع مني ، وذلك أني رأيت يوما دخانا في دار جيراننا ، فقلت لأُمِّي : هاتِ الصحن ، لعل جيراننا يغرفون لنا فيه شيئا ، فجاءت بصحنين ، فقلت : ما

¹ أنس المنقطعين لعبادة رب العالمين - يشتمل على 300 حديث و 300 حكاية ، وأبيات من الشعر، وهو للمعافي بن إسماعيل (551 - 630 هـ) : المعافي بن إسماعيل بن الحسين بن أبي السنان الشيباني الموصلي الشافعي، أبو محمد، جمال الدين: مفسر، عارف بالحديث والادب. مولده ووفاته بالموصل. من كتبه : نهاية البيان في تفسير القرآن ، و أنس المنقطعين لعبادة رب العالمين ، و الكامل - في الفقه ، و الموجز . الأعلام 7/259

² يعني معجم (المصباح المنير في غريب الشرح الكبير) ، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى : نحو 770هـ)

هذا ؟ قالت : لعلهم طبخوا لونين ، وقيل له : ما بلغ من طمعك ؟ فقال : ما كنت في جنازة ، ورأيت اثنين يتشاوران ، إلا ظننت أنهما يتحدثان في شيء أوصي به إليّ .

وقد يبلغ من الشخص حتى يشح على الذباب ، إذا دبّ على طعامه ، انتهى .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

لا تحرصن فالحرص ليس بفاخرٍ فالحرص مُشَقٌّ للرجالِ ومُتَعِبٌ¹

قوله : لا تحرصن فالحرص ليس بفاخرٍ ، فيه إشارة إلى أن الحرص مذموم ، وقوله : فالحرص مُشَقٌّ ، أي متعب ، وقوله : للرجال ، أي وكذلك للإناث ، وقوله : ومُتَعِبٌ : أي لأن الحرص من مداخل الشيطان إلى القلب ، قال ابن حجر في أثني المطالب : مداخل الشيطان إلى القلب كثيرة ، من أعظم تلك المداخل الحسد والحرص ، وكل منهما يؤدي [65] إلى التعب ، لأنهما يشغلان عن كل حسن مليح : ويدعوان إلى كل قبيح ، انتهى .

ثم أشار المصنف ، رحمه الله تعالى :

كَمَ عاجزٍ في الناسِ يأتي رِزْقُهُ رَغْداً وَيُحَرِّمُ كَيْسٌ وَيَخِيبُ

قوله : كَمَ عاجزٍ في الناسِ يأتي رِزْقُهُ ، أي كثير ، من حيث لا يدري ، وقوله : رَغْداً ، أي طيباً ، وقوله : وَيُحَرِّمُ كَيْسٌ وَيَخِيبُ ، أي يخيب سعيه في تحصيل رزقه ، وإن دار عليه الآفاق ، قال بعضهم ، رضي الله تعالى عنه :

يا طالبَ الرِّزْقِ في الدنيا بِقُوَّتِهِ تَدُورُ من بِلَدٍ فيها إلى بِلَدٍ
أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ فيما لَيس تُدْرِكُهُ
لو طَرَتَ بَيْنَ السَّما والأَرْضِ مُجْتَهِداً في شَرَبَةِ المائِ غَيْرِ الرِّزْقِ لم تَجِدِ
أَقْصَرَ عَنَّاكَ فَإِنَّ الرِّزْقَ مُنْقَسِمٌ يَأْتِيكَ لو أَنَّهُ في جَبْهَةِ الأُسْدِ

وقال بعضهم :

يا طالبَ الرِّزْقِ في الآفاقِ مُجْتَهِداً أَقْصَرَ عَنَّاكَ فَإِنَّ الرِّزْقَ مُقْسُومٌ
الرِّزْقُ يَسْعَى إلى مَنْ لَيس يَطلبه وطالبُ الرِّزْقِ يَسْعَى وهو مُحْرَمٌ

وقال بعضهم :

وما المَالُ والأَرْزافُ إلا مواهب كأَرْضِ لها خَصبٌ وأَرْضِ لها قَحْطٌ
وأَرْزاقنا مُقسومة فَكأنَّما طيورُها في كُلِّ نَاحيةٍ لَقَطٌ
فَطيرُ يَطيرُ الجَوِ يَطلبُ رِزْقَهُ وآخِرُ تَحْنُ الطَّيِّياتِ ولا يَحْطُ

¹ في رواية :

لا تحرصن فالحرص ليس بزايد في الرزق بل يشقى الحريص ويتعب

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — فقال :

فَعَلَيْكَ تَقْوَى اللَّهِ فَالْزَمَهَا تَفُزْ إِنَّ التَّقِيَّ هُوَ الْبَهِيُّ الْأَهْيَبُ

قوله : **فَعَلَيْكَ تَقْوَى اللَّهِ فَالْزَمَهَا تَفُزْ** ، أي الزم التقوى [66] وجوبا تفز بالمطلوب ، وفيه إشارة إلى الحث على التقوى ، لأنها أساس كل أمر ، وأن يتخلّق المرء بها وجوبا ، وإلا كان مُقصرًا ، وقال بعضهم :

أراك امرءاً ترجو من الله عفوهُ وأنت على ما تحب مقيم
تدلّ على التقوى وأنت مقصر فيا مَنْ يداوي الناس وهو سقيم

[وقال بعضهم أيضا ¹] :

كيف الرحيل بلا زاد إلى وطن لا ينفع المرء فيه غير تقواه
مَنْ لم يكن زاده التقوى فليس له يوم القيامة عذر عند مولاه

وقال الغمري : المراد بالتقوى اتباع الأوامر ، واجتناب النواهي ، المنصوص عليها في قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾² ، فمن المأمور به أنواع : كالطهارة ، والوضوء ، والغسل ، والتميم ، وإزالة النجاسة ، والصلاة وأنواعها : فرضا ونفلا ، والحج وأنواع المعاملة : من بيع ، وسلم ، وحوالة ، وتجارة ، وإجارة ، ونحو ذلك ، ومن المنهي عنه : الشرك بالله تعالى ، وقتل النفس بغير حق ، والزنا ، والربا ، وشرب الخمر ، والسرقة ، وأكل مال اليتيم ، والغيبة والنميمة ، وأكل أموال الناس ظلما ، والحسد ، والعُجب ، والكِبَر وسائر أنواعه ، قال تعالى : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾³ ، وقال صلى الله عليه وسلم : **[لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ كِبَرٍ]**⁴ ، [67] وقال وهب بن منبه : لمّا خلق الله تعالى جنة عدن ، قال لها : أنت حرام على كل متكبر ، وقوله : **إِنَّ التَّقِيَّ هُوَ الْبَهِيُّ الْأَهْيَبُ** ، أي الموقر عند الناس ، الواصل إلى الله تعالى ، وقال ابن الوردي — رحمه الله تعالى — في لاميته : شعر .

وَاتَّقِ اللَّهَ فَتَقْوَى اللَّهِ مَا جاوزت قلب امرئ إلا وصل
ليس من يقطع طرقات بطلاً إنما من يتق الله البطّل

هذا وقد وصف الله تعالى المتقين في كتابه العزيز بأوصاف جميلة ، وأثنى عليهم ، أثنية جميلة ، وذكر أنهم أكرم خلقه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾⁵ ، وقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا

¹ ما بين الحاصرتين وضع بين البيتين اللذين بعد .

² الحشر 7

³ النحل 29

⁴ المسند الجامع 26/319 (8571) .

⁵ الحجرات 13

إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ¹ ، وقال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾² ، وقال تعالى : كذلك نجزي المتقين³ .

واعلم أن الآيات والأحاديث الواردة في وصف المتقين كثيرة ، نسأل الله أن يجعلنا من المتقين ، وما أحسن ما قيل :

تمسك بتقوى الله ان مسك الضر ولا تنكرن يوما وإن عضك الدهر
ولا تقنطن واصبر لكل مصيبة تنال الذي تهوى ويعقبك الأجر
فعاقة الصبر الجميل حميدة فشق بعراها ما يطال بك العمر
ولا ترج غير الله في كل حالة فمنه العطا والنفع والضر
ولا شك أن الفقر يتبعه الغنى يقينا وأن العسر يعقبه اليسر
وقف عند من قد قال قلبي منشدا بقول بليغ عنده يحسن الصبر
[68] عسى فرج يأتي من الله إنه له كل يوم في خليقته أمر

ثم أشار المصنف رحمه الله تعالى بقوله :

وَأَعْمَلْ لِبَاطِنِهِ تَنَلْ مِنْهُ الرِّضَا إِنَّ الْمُطِيعَ لِرَبِّهِ لَمُقَرَّبٌ

قوله : وَأَعْمَلْ لِبَاطِنِهِ تَنَلْ مِنْهُ الرِّضَا ، أي لأن العز في الطاعة ، والذل في المعصية ، كما قال الإمام علي كرم الله وجهه ، سواء كان العمل صوما ، أو قتالا ، أو حجا ، أو نحو ذلك .
أخرج الطبراني في الأوسط ، والحاكم ، والبيهقي ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : [من اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى ، جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق [كل خندق] أبعد مما بين الخافقين]⁴ .

وأخرج أبو داود عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — قَالَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ — صلى الله عليه وسلم — [مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ وَعَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ مُحْتَسِبًا بُوعِدَ مِنْ جَهَنَّمَ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ خَرِيفًا]⁶ .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، بسند لا بأس به عن جابر بن عبد الله ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : [من رابط يوما في سبيل الله جعل الله بينه وبين النار سبعة خنادق كل خندق مثل سبع سماوات وسبع أرضين]⁷ .

¹ آل عمران 133

² آل عمران 15

³ هذا النص ليس في القرآن الكريم .

⁴ ما بين الحاصرتين زيادة من المعجم الأوسط

⁵ المعجم الأوسط 7/220 (7326) .

⁶ كتب : وعاد أخاه المسلم بوعد عن النار سبعين خريفا ، وما أثبتناه من سنن أبي داود (3099)3/152 .

⁷ المعجم الأوسط 5/111 (4825)

وفي رواية¹ : [من اغبرت قدماه في سبيل الله ، باعد منه النار مسيرة ألف عام للراكب الجدد]² .

وفي رواية: [باعده الله من النار سبع خنادق، ما بين كل خندقين [69] خمسمائة عام]³ .
وفي رواية مرفوعة : [مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَرِيضَةً بَاعَدَ اللَّهُ مِنْهُ جَهَنَّمَ كَمَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضَيْنِ السَّبْعِ، وَمَنْ صَامَ يَوْمًا تَطَوُّعًا بَاعَدَ اللَّهُ مِنْهُ جَهَنَّمَ مَسِيرَةَ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ]⁴ .

وفي رواية : [نْ صَامَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، بَاعَدَ اللَّهُ مِنْهُ جَهَنَّمَ كَبُعْدِ غُرَابٍ طَارَ وَهُوَ فَرَحٌ حَتَّى مَاتَ هَرَمًا]⁵ . انتهى من البدور السافرة⁶ .

ومن الطاعة : مَنْ كَانَ فِيهِ ثَمَانِي خِصَالٍ ، كَانَ لَهُ مِنَ اللَّهِ ثَمَانِيَةِ أَشْيَاءَ : مَنْ اتَّقَى وَقَاه ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاه ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ وَافَاه ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاه ، وَمَنْ شَكَرَهُ زَادَهُ فِيمَا أَوْلَاه ، وَمَنْ عَمِلَ بِمَا يَرْضِيهِ أَرْضَاه ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى مُحَارَمَةِ حَبَاه ، وَمَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِهِ جَاوَاه .

حكاية :

سئل الجنيد — رحمه الله تعالى — عن عباد الرحمن مَنْ هُمْ؟ فقال : هم الذين طاعة الله حلاوتهم ، والفقر كرامتهم ، وترك الدنيا لذتهم ، وإلى ربهم حاجتهم ، والتقوى زادهم ، ومع الله تجارقتهم ، وبه أنسهم ، وعليه اعتمادهم وتوكلهم ، والجوع طبعهم ، وحسن الخلق إمامهم ، والسخاء حرفتهم ، والصبر سائقهم ، والهدى مركبهم ، والقرآن حديثهم ، والذكر همهم ، والرضا راحتهم ، والقناعة مالهم ، والعبادة كسبهم ، والحياء منيعهم ، والخوف سجيبتهم ، والنهار عبرتهم ، والليل فكرتهم ، والحكم بيعهم ، والحق حارثهم ، والحياة مرحلتهم ، والموت

¹ استعمل الشارح قوله : (وفي رواية) في غير موضعها ، فقد جرت العادة أن يُقال هذا اللفظ عندما تأتي رواية بلفظ غير ما ورد في الحديث الذي يذكره المصنف ، فيقال ، وفي رواية ، كان يقال : (ذهب إلى ...) ، فيقال : وفي رواية أخرى : (فنذكر أن) ، بدل ذهب إلي .

² لم أجد بهذا اللفظ في كتب المتون ، ولا في كتب التخريج والزوائد ، والذي ذكره الألباني في السلسلة الضعيفة رقم 4815 عن أبي الدرداء هو : [لا يجمع الله في جوف رجل غبارا في سبيل الله ودخان جهنم . ومن اغبرت قدماه في سبيل الله ؛ حرم الله سائر جسده على النار . ومن صام يوما في سبيل الله ؛ باعد الله عنه النار مسيرة ألف سنة للراكب المستعجل . ومن جرح جراحة في سبيل الله ؛ ختم له بخاتم الشهداء ؛ له نور يوم القيامة ، لونها مثل لون الزعفران ، وريحها مثل ريح المسك ، يعرفه بها الأولون والآخرون ، يقولون : فلان عليه طابع الشهداء . ومن قاتل في سبيل الله فواق ناقة ؛ وجبت له الجنة] وقال عنه ضعيف بهذا التمام .

³ عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه من الماء حتى يرويه باعده الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين خمسمائة عام] . رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه إلا أنه قال : (من أطعم أخاه خبزاً) . وفيه رجاء بن أبي عطاء وهو ضعيف . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (4720)3/320

⁴ المعجم الكبير للطبراني 12/47 (13742) .

⁵ المعجم الكبير للطبراني 6/160 (6241) .

⁶ البدور السافرة: في أمور الآخرة ، للسيوطي .

منزلتهم ، والنظر إلى [70] الله تعالى مُنيتهم ، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾¹ ، وقال بعضهم شعرا :

بادر إلى الخير يا ذا اللب مغتتما ولا تكن من قليل الخير محتشماً
واشكر لمولاك ما أولاك من نعم فالشكر يستوجب الإفضال والكرما
وارحم بقلبك خلق الله وارعهم فإنما يرحم الرحمن من رحما

تنبيه :

يجب على المكلف أن يعمل لطاعة الله عز وجل ، وأن يتخلق بأخلاق القوم ، ويتبع طريقهم ، ليفوز بخير الدنيا والآخرة .

وقال بعضهم : اعلم أن طريق القوم واضحة مستنيرة ، وإن أهلها قد عزّ مشهدهم ، وطاب موردهم ، واستقام طريقهم ، واعتدل فريقهم ، وسعد مريدهم ، ونجى فريقهم . وما أحسن ما قال في المعنى بعضهم :

طريق القوم حق مستقيم وأهلهم لهم شأن عظيم
ترقوا من مشاهدة البرايا لمشهد من هو الرب الكريم
فبشرى للمريد لهم إذا ما بكل عهودهم حقا يقوم
فوالله الذي نقفوا سيلا لأهل الله يبلغ ما يروم
فأرجو الله في تحقيق ما قد ذكرت بحاله أبدا يدوم

وحكي عن بعضهم أنه رأى أبا نواس بعد موته في المنام ، وكان يظن به سوءاً ، فقال له : ما فعل الله بك يا أبا نواس ؟ قال : غفر لي خطيئتي بأبيات قلتها قبل الموت :

تفكر في بنات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين ناظرات بأحداق هي الذهب السيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك
وأن محمدا عبدا رسولا إلى الثقلين أرسله المليك

وقوله : إِنَّ الْمُطِيعَ لِرَبِّهِ لَمُقَرَّبٌ ، أي قريب من الله تعالى بسبب الطاعة ، وقيل : وهل تنفع الطاعة إذا كان الشخص من أهل النار ، وهل تضر المعصية إذا كان الشخص من أهل الجنة ، أم لا ؟ مع أن الجنة والنار معدّتان وهم نُطف ، قبل أن يستقروا في الأصلاب والأرحام .
الجواب : إن العمل ، وهو الطاعة ينفع الشخص إذا كان من أهل الجنة ، يرفع درجاته ، وإن كان من أهل النار ، بتخفيف العذاب عنه إذا كان عاصيا غير عذاب الكفر .

وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى :

إن عرفان ذي الجلال لعز
وعلى العارفين أيضا بهاء
فهنيئا لعارف لك ربي
وضياء وبهجة وسرور
وعليهم من الحبة نور
هو والله دهره مسرور

وقال بعضهم :

قم وتره بذكره الأفكار
أحد لا يرى جلي شأنه
فالسماوات السبع والأرض حقا
وتدبر كيف تفهم الأسرار
ببصر وهو يدرك الأبصار
ملينة منه عزة ووقارا

وقالت رابعة العدوية :

أحبك حين حب الهوى
فأما الذي هو حب الهوى
وأما الذي أنت أهل له
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي
وحباً لأنك أهل لذاكا
فشغلي بذكرك عن سواكا
فكشفك لي الحجب حتى أراكا
ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

[72] تنبيهه :

ورد : أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد ، ودلّ هذا على القرب من الله تعالى ،
وليس هذا القرب مختصا بالسجود ، لأنّ القرب قد يكون بغيره كما قيل : مَنْ صلى على النبي
صلى الله عليه وسلم صباحا ، غُفِرَ له قبل المساء ، وَمَنْ صلى عليه مساء ، غُفِرَ له قبل الصباح .

فائدة :

ينبغي للإنسان أن لا ينظر إلى كثرة طاعته وعبادته ، لأنه لا يدري بما يختمه ، كما حُكي
عن برصيص العابد أنه كان له ستون ألفا من التلامذة ، وكانوا يطيطون في الهوى ببركته ، ومع
ذلك مات كافرا ، نعوذ بالله من ذلك ، وكان يعبد الله ؛ حتى تعجبت الملائكة من عبادته ، فقال
الله لهم : لِمَ تعجبون منه ، إني أعلم ما لا تعلمون ، في علمي أنه يكفر ، ويدخل النار أبد الآبدين ،
قال : فلمّا سمع ذلك إبليس ، وعلم أنّ هلاكه على يديه ، أتى له في الصومعة ، وتصور في شبه
عابد ، وقد لبس من لصوف ، وناداه ، فقال له : برصيص : مَنْ أنت ، وما تريد ؟ فقال : أنا
عابد ، أريد أن أكون لك مُعينا على عبادة الله تعالى ، فقال له برصيص : مَنْ أراد عبادة الله تعالى ،
فإنّ الله تعالى يكفيه صاحباً ، قال : فقام إبليس — لعنه الله — وصار يعبد الله ثلاثة أيام ، وهو لا
يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام ، فقال له برصيص : أنا آكل وأشرب وأنام ، وقد عبدت الله
مائتين وعشرين سنة ، فلم أقدر [73] على ترك الأكل والشرب والنوم ، فما حيلتي ؛ حتى أصبر

مثلك ، فقال له إبليس — لعنه الله — اعصِ الله ، ثم تب ، فإنه رحيم ؛ حتى تجد حلاوة الطاعة ، فقال له برصيص : وكيف أعصيه بعد أن عبدته كذا وكذا من السنين ، فقال له إبليس — لعنه الله — : إنَّ الإنسان إذا أذنب يحتاج إلى المغفرة ، والمغفرة لا تكون إلاَّ بعد الذنب ، فقال له برصيص : وأي ذنب تشير به عليّ ، قال : الزنا ، قال : لا أفعل ، قال : شرب الخمر مسكرا ، فإنه أهون ، فقال برصيص : وأين أجد الخمر ، قال : اذهب إلى القرية الفلانية ، فتجده فيها ، قال : فذهب ، فوجد امرأة جميلة ، فاشتري منها الخمر وشربه ، فسكر ، وزنى بالمرأة ، فدخل عليه زوجها ، وقبض عليه ، وضربه ضربا وجيعا ، ثم إنَّ إبليس — لعنه الله — تمثل في صورة إنسان من أعوان السلطان ، وأخذ برصيصا ، وذهب به إلى السلطان ، فأخذه السلطان ، وجلده للخمر ثمانين جلدة ، وللزنا مائة جلدة ، وأمر بصلبه ، فصلبوه على خشبة ، فجاءه إبليس على تلك الصورة ، وقال : كيف ترى حالك يا برصيص ؟ فقال برصيص : مَنْ أطاع قرين السوء فحاله هكذا ، فقال له إبليس : كنت في صلاتك مائتين وعشرين سنة ؛ حتى صلبتك ، فلو أردت أنزلتك ، فقال له برصيص : افعل ذلك ، وأنا أطيعك فيما تُريد ، فقال له إبليس — لعنه الله — اسجد لي سجدة ، فقال برصيص : [74] وكيف أسجد لك وأنا مصلوب على خشبة ؟ فقال له إبليس : اسجد لي بالإيماء ، قال : فأومأ برصيص برأسه ؛ ساجدا نحو إبليس — لعنه الله — فكفر ، نعوذ بالله من ذلك ، فلمَّا كفر ، قال الشيطان : إني بريئ منك ، إني أخاف الله رب العالمين ، اللهم اجعل الإيمان لنا سراجا ، ولا تجعله علينا استدراجا برحمتك يا أرحم الراحمين .

وحُكي عن أخوين ، كان أحدهما مسرفا ، والآخر عابدا ، وكان العابد يتمنى أن يرى إبليس ، قال : فظهر له إبليس يوما ، وقال له : وآسفاه عليك ، ضيعت من عمرك أربعين سنة ، وأنت في حصر نفسك ؛ واثقا بذلك ، وقد بقي من عمرك قدر ما مضى منه ، فأطلق نفسك في شهواتها ، فقال العابد في نفسه : لعلي أن أنزل إلى أخي في أسفل الدار ، وأوافق على الأكل والشرب والشهوات واللذات عشرين سنة ، ثم أتوب وأعبد الله في العشرين الباقية من عمري ، فنزل من الجبل على نية ذلك ، وأمَّا أخوه المسرف فإنه استيقظ من سكره ، فوجد نفسه في حالة رديئة ، وقد بال على ثيابه ، وهو مطروح على التراب في الظلام ، فقال في نفسه : أنا قد أفنيت عمري في المعاصي ، وأخي يتلذذ بطاعة الله ، ومناجاته ، ويدخل بذلك جنة ربه ، وأنا بالمعاصي أدخل النار ، ثم عقد التوبة مما كان فيه ، ونوى فعل الخيرات والعبادة ، وطلع يوافق أخاه على [75] عبادة الله تعالى ، فهذا طلع على نية الطاعة ، وأخوه نزل على نية المعصية ، فرلت رجله ، فسقط على أخيه ، فوقعا ميتين ، فحُشر العابد على نية المعصية ، وحُشر العاصي على نية التوبة ، فينبغي للعبد أن يُحسن نيته .

وحكي عن عبد الواحد بن زيد — رحمه الله تعالى — أنه قال : مررت ببعض الجبال ، فرأيت شخصا أعمى ، وهو مقطوع اليدين والرجلين ، وهو يضرب به الفالج في كل وقت ، وزناير الأرض تنهش من لحمه ، والدود يتناثر من أجنابه ، وهو يقول : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى كثيرا من خلقه ، قال عبد الواحد ، فتقدمت إليه ، وقلت له : يا أخي ، وأي شيء عافاك منه ، والله ما أجد إلا جميع البلايا محيطة بك ، قال عبد الواحد : فرفع رأسه ، وقال لي : يا بطّال ! إليك عني ، إذا أطلق لي لسانا يوحد ، وقلبا يعرفه ، وفي كل لحظة يذكره ، فلذلك أحمد ، ثم جعل يقول :

حمدت الله ربي إذهداني إلى الإسلام والدين الحنيف
فيذكره لسان كل وقت ويعرفه فؤادي باللطيف

وحكي عن الحسن البصري — رحمه الله تعالى — أنه قال : دخل رجل في بعض القرى إلى بلاد الروم ، فرآى جرية حسناء ، فافتتن بها ، فخطبها ليتزوج بها ، فأبوا أن يُزوجوه بها ، حتى يتنصّر مثلهم ، فأجابهم إلى ذلك ، فأحضروا [76] له قسيسا ، فتنصّر على يديه ، فخرجت الجارية ، وجاءت إليه ، وبصقت في وجهه ، وقالت له : ويحك ، تركت دين الحق بشهوة نفسك ، فأنا أترك دين الباطل إلى نعيم الأبد ، وأنا أقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وحكي عن بعض العلماء ، في تصنيف له ، قال : إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى جبريل — عليه السلام — أن اهبط إلى البلد الفلانية ، فاقلب عاليها سافلها ، فإنه قد اشتد غضبي عليهم في هذه الليلة ، فقال جبريل : يا ربّ ! وأيّ ذنب فعلوا ، فقال : إنه زنى منهم في هذه الليلة سبعون ألف ذكر ، بسبعين ألف فرج ، قال : فذهب جبريل إلى تلك القرى ، وكانت سبعة مدائن ، فرفعها جبريل على خافقة من جناحه ؛ حتى وصل بها عنان السماء ، وأراد أن يقلبها إلى الأرض ، وكان لامرأة منهم عجين ، فقامت إليه لتعجنه ، ولها طفل نائم في المهد ، فلمّا أن وضعت يدها في العجين ، استيقظ الطفل في مهده ، وصاح ، فتحيّرت المرأة في أمرها ، وماذا تفعل ، ويدها في العجين ، وولدها يصيح ، فقامت من عظم حرقتها تخاطب ولدها ، وهي تقول : يا ولدي ! إنّ ربي سبحانه وتعالى من كرمه لا يعجل بالعقوبة على من عصاه ، قال : فلما تكلمت المرأة بذلك سكن غضب الله سبحانه وتعالى ، وقال : يا جبريل ضع القرى في مكانها [77] فإنه قد سكن غضبي عنهم ؛ بمنجاة هذه المرأة لولدها ، وإني حلیم ، لا أعجل بالعقوبة على من عصاني ، فكان هذا الطفل سببا للشفاعة فيمن استحقوا العذاب ، وهم لا يعلمون ، اللهم ارض عنا ، ولا تغضب علينا .

حكاية جليلة ، وموعظة فضيلة :

نقل عن بعض مشايخ الصوفية ، أنه جاء له مُريد ، يستوصف منه دواء من قبح أعماله ، وسوء فعالة ، وما ناله من شدة ألمه الذي اعتراه من كثرة الذنوب ، فقال : يا شيخ ! هل عندك دواء للذنوب ، قال : فأطرق الشيخ ساعة ، ثم رفع رأسه ، وقال له : يا هذا! خذ من عروق ورق الصبر بقدر ما تحمله مهجتك ، وتصل إليه قدرتك ، وأضف إليه ثمار السخاء ، وراوند الصفاء ، واهليج العزم والوفاء ، واسحقه بيد الإخلاص سحقا جيدا ، ثم اجعله في آنية الخوف والقلق ، وأوقد تحته بنار الزفرات والحرق ؛ حتى يعلوه زبد التحقيق ، ثم صفّه بمنخل المراقبة ، واشربه بملعقة الاستغفار ، وتمضمض بعده بماء الصدق والورع ، فإنك لم تجد بعدها ذنبا يؤلمك ، ولا ذلة تخجلك .

فانظر يا هذا إلى هذه الموعظة الجامعة لمعاني البلاغة ، كما قال بعضهم ، رحمه الله تعالى :

جنوا تمر خوخ الخوخ في روضة الرضا [78] وإيجاص إخلاص وتين التوكل
وارطاب حب قد جنتها يد الهوى وأعنان أشواق بها القلب ممتلي
ورمان إجلال وتفاح هية وموز الحيا مبدي رجاء السفرجل

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — يحث على أداء الأمانة بقوله :

أَدِّ الْأَمَانَةَ وَالْحَيَانَةَ فَاجْتَنِبْ وَاعْدِلْ وَلَا تَظْلِمْ يَطِيبُ الْمَكْسَبُ

قوله : أَدِّ الْأَمَانَةَ ، أي ردّ الأمانة الواجبة عليك شرعا من نحو ودیعة ، ورهن ، وعارية ، وغير ذلك ، ويحتمل أَدِّ الْأَمَانَةَ المفروضة عليك من الواجبات ، وترك المنهيات ، وقوله : وَالْحَيَانَةَ فَاجْتَنِبْ ، أي تباعد عنها ، واعدل ، أي لأنّ العدل رأس الأمور الشرعية ، فيجب على كل امرئ التخلّق به ، والحث عليه ، كما وقع لعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه في إقامة الحد على ولده أبي شحمة ، ولم تأخذه في الله لومة لائم ، كما جاء في الخبر أن أبا بكر الصديق ، رضي الله تعالى عنه مكث في الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم سنتين ، ومكث عمر بن الخطاب ، رضي الله تعالى عنه بعد أبي بكر سنتين ، وكان¹ رضي الله عنه له ولد ، يُسمّى أبا شحمة ، وكان حسن الوجه ، وكان عمره سبعة عشر سنة ، وختم القرآن وهو ابن سبع سنين ، وكان يعبد الله ليلا ونهارا ، ولم يخرج من عند أمه [79] طرفة عين ، فمرض واشتد به المرض ، فكانت أمه تبكي عليه وتقول: يا أمير المؤمنين ! أنذر لولدك نذرا ، لعل الله تعالى يقبل منك نذرك ، ويرحم ولدك ، ويعافيه من ذلك ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه : إني نذرت للرحمن صوم شهر ، وعتق رقبة لأجل ولدي أبي شحمة ، فقالت أمه : وأنا كذلك يا أمير المؤمنين ، قال : فتقبل الله منهما نذرهما ،

¹ الضمير عائد على عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه .

فعوفي أبو شحمة من مرضه ، فإذا كان ليلة الجمعة ، قال عمر رضي الله تعالى عنه : قم بنا يا أبا شحمة ؛ حتى نزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو شحمة مع أبيه ، فزارا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وختما عنده ختمة قرآن ، وقاما وهما متوجهان إلى منزلهما — فبينما هما سائران في سكك المدينة ، وإذا الناس يتزاحمون بين يدي عمر ، رضي الله تعالى عنه ، فضلّ أبو شحمة عن الطريق ، وتاه عن بيت أمه ، فذهب إلى حارة اليهود ، فأخذه اليهود إلى منازلهم ، وأكرموه وأطعموه ، وسقوه خمرا ؛ حتى أسكروه ، فخاف اليهود من أبيه ، فأخرجوه من بيوتهم ، وأغلّقوا أبوابهم ، فخرج أبو شحمة من عندهم ، وهو سكران¹ ، فمر في طريقه بحداثق الأنصار ، فجاء إلى بعض أبواب الحداثق ، فوجده مفتوحا ، فدخل فيه ، بغير إذن صاحبه ، ودار بين الأشجار ، وإذا بجارية قائمة في ظل شجرة ، فمسكها غصبا ، وواقعها [80] ، فحملت منه تلك الجارية من وقتها ، فقامت الجارية ، وقالت له : ويلك ! مَنْ أنت ؟ فَضَحَكَ اللهُ بين الحلائق كما فضحتني بين يدي الخالق ، ثم مسكته ، وقالت له : أخبرني مَنْ أنت ؟ وَمِنْ أولاد مَنْ ، وإلّا أصبح عليك صيحة أجمع عليك الأنصار ، فقال لها : أنا أبو شحمة ، ابن عمر بن الخطاب ، ثم تركها ، وانصرف هاربا ، فتلّقه غلام في طريقه ، فقال له : يا غلام دلّني على بيت عمر بن الخطاب ، قال : فأخذه الغلام من يده ، وجاء به إلى بيت والده عمر ، فلمّا دخل البيت ، قامت له أمه ، وقبلته بين عينيه ، وقالت له : أين كنت يا ولدي ؟ لقد غبت عني ، وأنا اشتقت إليك ، فقال لها : يا أماه ! إني كنت مع أبي في زيارة قبر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فتزاحم الناس علينا ، فحالوا بيني وبين أبي ، فضلت عن الطريق ، فوجدت غلاما أرشدني إلى هنا ، فقالت أمه : الحمد لله الذي منّ علينا برؤيتك ، فلما استكملت الجارية تسعة أشهر ، وضعت غلاما ، فأرضعته شهرين كاملين ، ثم حملته ، وجاءت به إلى مسجد النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقعدت به على باب المسجد ، حتى فرغ عمر بن الخطاب من صلاته بالناس صلاة الصبح ، وفرغ من القراءة والدعاء ، فقامت الجارية ، وتقدّمت إليه ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ثم وضعت الغلام بين يديه ، وقالت : يا أمير المؤمنين : إنّ هذا ولد ابنك [81] أبي شحمة ، فقال لها عمر : وكيف يكون هذا ولد ابني ؟ وَمَنْ أين تكوني ؟ حتى أصابك ولدي أبو شحمة ؟ فقالت له : يا أمير المؤمنين ! أنا بنت فلان الأنصاري ، وإني جئت يوما إلى حديقة من الحداثق ، فأخذتني سِنَّة من النوم ، فنمت تحت ظل شجرة ، وإذا بولدك أبي شحمة قد مسكني وغصني وواقعني ،

¹ الخبر الوارد في أبي شحمة واهي السند، كما ذكره الحافظ . قال ابن حجر في (الإصابة): أبو شحمة بن عمر بن الخطاب جاء في خبر واحد، أن أباه جلده في الزنا فمات، ذكره الجوزقاني... اهـ. هذا مع العلم بأن وقوع المعاصي من بعض الصحابة أمر محتمل، لعموم قول النبي صلى الله عليه وسلم: "كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون." رواه ابن ماجه والدارمي، وإسناده حسن. والله أعلم.

فحملت منه بهذا الغلام ، فقال لها عمر : هل لك من شاهد على ذلك ؟ قالت : الله شاهد بيبي وبينه ، فقال عمر : تحلفين اليمين ؟ قالت : نعم ، فقال عمر لغلمانه : ائتوني بالمصحف ، فأثوه به ، فأخذته الجارية وقبلته ، ووضعت على رأسها ، ثم وضعت على ركبتيها ، ووضعت يدها اليمنى عليه ، وقالت : وحقّ هذا المصحف سورة سورة ، وآية آية ، وحرفا حرفا ، وكلمة كلمة إنّ هذا الطفل من ولدك أبي شحمة ، فعندها قال عمر : لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ، ثم قام وأعطاه مائة درهم ، وقال لها : اذهبي وأنفقي هذه الدراهم عليك ، وعلى ولدك ، قال : فقامت الجارية ، وأخذت ولدها ، وانصرفت إلى منزلها ، فقال عمر : ألا من يحب الله فليجلس في المسجد؛ حتى أعود إليه ، قال : فجلس القوم ، وجاء عمر إلى منزله ، ودموعه تجري على خديه ، ودخل بيته ، فوجد ولده أبا شحمة يأكل طعاما ، قال : فلمّا رأى أبو شحمة [82] والده غضبان نشف ريقه ، ورمى اللقمة من فمه ، فجلس وبكى بكاء شديدا ، فبكت زوجته لبكائه ، فقال أبو شحمة : وما الذي نزل بك يا والدي ، فقال عمر : يا ولدي : أسألك عن شيء ، وتنطق لي بالصحيح ، فقال أبو شحمة : أسألي يا والدي عما شئت ، ستجديني إن شاء الله من الصابرين ، فقال عمر : يا ولدي ! إنه قد جاءتنا جارية من بنات الأنصار إلى المسجد ، ومعها ولد صغير ، وقالت لي : يا عمر ! هذا من ولدك أبي شحمة ، فقلت لها : هل من شاهد بينك وبينه ، قالت : الله شاهد بيبي وبينه ، فقلت لها : تحلفين اليمين ؟ قالت : نعم ، فأتيته بالمصحف ، فوضعت يدها عليه ، وحلفت أنّ هذا الولد من ابنك أبي شحمة ، قال : فعندها اصفرّ لون أبي شحمة ، وغشي عليه حياء من والده ، وخوفا من ربه ، فصاحت أمه ، ورشّت الماء على وجهه ، فأفاق بعد ساعة ، هذا وعمر يبكي ، وقال : يا ولدي ! تكلم بالصحيح ، فقال أبو شحمة : يا والدي ! لا تأخذ مني إلاّ حقا ، إني فعلت ذلك بغير عقل ، وإني ندمت على ما فعلت ، وكان ذلك مكتوبا في اللوح المحفوظ ، فقال له عمر : قم بنا إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو شحمة : ما تفعل بي يا والدي ؟ قال : آخذ منك حقّ الله سبحانه وتعالى ، وأخلصك من غضبه ، فقال أبو شحمة : يا والدي ! خذ مني حقّ الله سبحانه وتعالى هاهنا ، ولا تفضحني بين الناس [83] ، ثم أخذه أبوه ، وخرج به ، فتعلقت به أمه ، فجذبه منها ، وأغلق عليها الباب ، وجاء به إلى مسجد النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ونزع ثيابه ، وألقاه على وجهه ، بعد أن قبله بين عينيه ، وكان عمر له غلام ، يُسمى أفلح ، فأعطاه عمر سوطا من جلد بغير ، وقال له : يا أفلح ! لا تخلي من جهدك شيئا ، اضربه ، فإني أطالبك به بين يدي الله ، وجاء عمر إلى ولده ، وقال له : يا ولدي ! اجعلني في حلّ ، فقال أبو شحمة : وأنت يا والدي ، اجعلني في حلّ ، قال : فضجّ المسلمون بالبكاء والنحيب ، فأمر عمر غلاما آخر أن يجلس على رأسه ،

وجلس آخر على رجله ، وقال عمر : اضرب يا أفلح ، قال : فرفع أفلح يده بالسوط ، وضربه ، فشقّ جلده ، فصاح أبو شحمة ، وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال عمر : يا ولدي ! اذكر الله ، يذكرك برحمته ، قال : اضرب يا أفلح ، ولا ترحم ، فضربه عشرة أسواط ، فقال أبو شحمة : يا ولدي ! بحق رأسك ترحمني ، قال : فضجّ المسلمون بالبكاء والنحيب ، وغشي على عمر ، فرشّوا على وجهه الماء ، فلمّا أفاق ، قال : اضرب يا أفلح ، فإني أطلبك به بين يدي الله تعالى ، قال : فضربه أربعين سوطا ، فصاح أبو شحمة ، وقال : يا ولدي ! اسقني شربة ماء ، قال : فعندها ضجّ المسلمون بالبكاء والنحيب ، وتزاحموا عليه ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ! خذ منا ما بقي من الحدّ ، واطق أبا شحمة ، [84] قال : فبكى عمر بكاء شديدا ، وقال لهم : يا أصحاب محمد ! لو حمل أحد عن أحد ؛ لكان عمر أحق منكم بالحمل عن ولده ، ولكن يسأل الله يوم القيامة كل عبد على حدته عن عمله ، ثم قال عمر : اضرب يا أفلح ، فضربه أفلح ستين سوطا ، فصاح أبو شحمة ، وقال : يا أمّاه ! أين أنتِ ، عسى والدي يرحمني ، قال : فأخبروها بحال ولدها ، فجاءت سريعا ، وهي تقع تارة ، وتقوم تارة ؛ حتى وصلت إلى ولدها ، فلمّا رآته على تلك الحالة ، رمت نفسها عليه ، وصاحت ، وقالت : يا كربي لكربك يا ولدي ، قال : فصاح أبو شحمة ، وقال : يا أمّاه ! ارحمني ، فصاحت أمه ، وقالت : يا أمير المؤمنين ! خذ مني ما بقي من الحد عن ولدي ، فقال عمر رضي الله عنه : شيلوها عن ولدها ، فشالوها عنه ، فولّت هاربة إلى البريّة ، فقال عمر : اضرب يا أفلح ، ولا ترحم ؛ حتى يرحمه الله تعالى ، قال : فضربه ثمانين سوطا ، فمات أبو شحمة ، رحمه الله تعالى ، قال : فبكى أفلح بكاء شديدا ، فقال له عمر : اضرب يا أفلح ، ولا ترحم ، فقال أفلح : يا أمير المؤمنين ! إنه قد مات ، فقال عمر رضي الله عنه : يا أفلح اضربه إلى تمام المائة ؛ حتى لا يضربوه بين يدي الله تعالى بعواميد من نار ، قال : فضربه أفلح تمام المائة ، فقام عمر ، وأخذ في جهازه ، فغسله ، وكفّته ، وصلى عليه ، ودفنه في البقيع ، فقعدت أمه عند قبره أربعين يوما ، وهي لا تأكل ، ولا تشرب ، ولا تنام [85] ليلا ولا نهارا ، قال : فخرج عمر رضي الله عنه في طلبها ، فوجدها عند قبر ولدها ، فقعد عندها ، وبكى بكاء شديدا ، ثم قال لها : يا أم عبد الله ! كُفّي عن البكاء والحزن ، واصبري على حكم الله تعالى ، واحمدي الله الذي خلّصه من عذاب الله يوم القيامة ، ومن ضرب الزبانية له بعواميد من نار ، بين يدي الله تعالى ، فقامت أم عبد الله إلى منزلها ، وقالت : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم قضت باقي عمرها بالبكاء والنحيب ليلا ونهارا ؛ حتى توفيت إلى رحمة الله تعالى .

فانظروا يا اخواننا إلى عظم عدل أمير المؤمنين ، لعل ذلك يحملنا على التخلّص به ، رحمتنا الله وإياكم أجمعين .

وقوله : ولا تظلم يَطيّبُ المكسبُ ، قال تعالى ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾¹ ، قيل : وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وإخفاء الشيء من غير وجه شرعي ، ولنذكر لك أيها الواقف على هذا الشرح جملة من أنواع الظلم ، ليكون الشخص منها على حذر .

اعلم أنّ الظلم محرم في كل ملة ، قال صلى الله عليه وسلم : [الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]² ، وقد يكون الظلم في المال والنفس والعرض ، وكل ذلك منهي عنه ، ومن الظلم أخذ المكس³ ، وأكل مال اليتيم ، وكذا المماطلة بحق عليك ، مع قدرتك على وفائه ، ومنه أن يظلم المرأة في نحو صداقها ، أو كسوتها ، أو غير ذلك ، ومنه أن يظلم يهوديا أو نصرانيا ، بنحو أخذ ماله تعديا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : [مَنْ ظَلَمَ ذِمِّيًّا فَأَنَا خَصْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]⁴ ومنه أن يقطع حق غيره بيمين فاجرة لخبر الصحيحين : [مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ] ، قيل : يا رسول الله ! وإن كان شيئا يسيرا ، قال : [وإن قضييّا من أراك]⁵ فاحذروا يا اخواننا الظلم ، وأنواع الضرر ، وكونوا يا اخواننا من دعوة المظلوم على حذر ، كما قال بعضهم ، رضي الله تعالى عنه⁶ :

لا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَالظُّلْمُ تَرْجِعُ عُقْبَاهُ إِلَى النَّدَمِ
تَسَامُ عَيْنُكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمْ

وقال بعض السلف : لا تظلم الضعفاء ، فتكون عند الله من أشرار الأشرياء .

حكاية :

¹ طه 111

² المسند الجامع 9/139 (2801)

³ كتب المكسب ، وهو خطأ ، وما أثبتناه هو الصواب ، والمكسب الجبائيّ وهو مصدر من باب ضرب أيضا وفاعله مكّس ثم سمي المأخوذ مكسا تسمية بالمصدر وجمع على مكوس مثل فلس وفلوس وقد غلب استعمل المكس فيما يأخذهُ أعوان السلطان ظلما عند البيع والشراء قال الشاعر : وفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس دهرهم .

المصباح المنير (م ك س) .

⁴ جاء في كشف الخفاء 2/152 (2529) : (من ظلم ذميا كنت خصمه) (رواه أبو داود بسند حسن بلفظ من ظلم معاهدا أو تنقصه حقه أو كلفه فوق طاقتة أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة . وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة ص 213 : حديث (من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة) قيل موضوع وقال العراقي له طرق . وجاء في ضعيف الجامع الصغير (12093) : (من آذى ذميا فأنا خصمه و من كنت خصمه خصمته يوم القيامة) .

⁵ صحيح مسلم 1/85 (370) .

⁶ من البسيط ، لعلي بن أبي طالب ، ديوانه / الموسوعة الشعرية .

وجدوا على إيوان كسرى هذه الكلمات : الظلم لا يدوم ، وإن دام دمّر ، والعدل لا يدوم ، وإن دام عمّر ، ومن لم يكن له ولد ذكر ، لم يُذكر ، والفقر هو الموت الأحمر ، والأعمى ميّت ، وإن لم يُقبر ، انتهى .

تتمّة :

إذا استعان شخص بآخر في دفع ظلم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه من غير عذر شرعي ، لأنّ من حق أخوة الإسلام التناصر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [قال الله عزّ وجلّ : وعزّي [87] وجلالي لأنتقمّن من الظالم في عاجله وآجله ، ولأنتقمّن من يرى مظلوماً يقدر أن ينصره ، فلم يفعل]¹ ، وقال صلى الله عليه وسلم : [أنصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا ، أَوْ مَظْلُومًا] فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا ، كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ : [تَحْجُزُهُ ، أَوْ تَمْنَعُهُ ، مِنَ الظُّلْمِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ]² .

ثم أشار المصنف ، رحمه الله تعالى :

وَاحْذَرِ مِنَ الْمَظْلُومِ سَهْمًا صَائِبًا وَاعْلَمْ بِأَنْ دُعَاءَهُ لَا يُحْجَبُ

أشار المؤلف في هذا البيت إلى أنّ دعاء المظلوم لا يُحجب ، وأنه كالسهم الصائبة في البدن ، وفي ذلك إشارة إلى جواز الدعاء على الظالم ، وهو كذلك ، قال ابن القاسم على الغاية : وتوقف بعضهم في جواز الدعاء على الظالم بالفتنة في دينه ، وسوء الخاتمة ، ونصّ بعضهم على أنّ محل المنع من ذلك في غير الظالم المتمرد ، أمّا هو ، فيجوز ، انتهى كلامه .

والأحاديث الواردة في جواز³ دعاء المظلوم كثيرة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم :

[ثَلَاثَ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ ، لَا شَكَّ فِيهِنَّ :: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ ، ودَعْوَةُ الْمُسَافِرِ ، ودَعْوَةُ

الوالدين على الولد]⁴ أخرجه البخاري في الأدب ، وأبو داود ، والترمذي ، وأخرج أحمد

والبزار بسند حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [دعوة المظلوم مُستجابة ، وإن كان

فاجراً ففجره على نفسه] ، ولأحمد من حديث أنس ، [وإن كان كافراً] ، وقال [88] صلى

الله عليه وسلم : [ثَلَاثَةٌ لَا تَرُدُّ دَعْوَهُنَّ الذَّاكِرُ اللَّهُ كَثِيرًا وَالْمَظْلُومُ وَالْإِمَامُ الْمُقْسِطُ]⁵

وفي حديث آخر : [ثَلَاثَةٌ لَا يَرُدُّ اللَّهُ دَعْوَهُنَّ الذَّاكِرُ اللَّهُ كَثِيرًا وَالْمَظْلُومُ وَالْإِمَامُ الْمُقْسِطُ]⁶ ، وفي

¹ رواه ابن حبان عن ابن عباس والطبراني عن أبي الدرداء عن الرسول صلى الله عليه وسلم ،

² المسند الجامع 3/422 (1039) .

³ كتب : إجازة

⁴ وانظر : البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير ، لابن الملقن : سراج الدين أبو

حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري 5/153

⁵ البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير 5/152

⁶ الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير - السيوطي 2/52 (5639)

رواية : [أربعة دعوتهم مستجابة الإمام العادل والرجل يدعو لأخيه بظهر الغيب ، ودعوة المظلوم ورجل يدعو لوالديه]¹ وفي رواية : [دعوتان ليس بينهما وبين الله حجاب : دعوة المظلوم ، ودعوة المرء لأخيه بظهر الغيب] وفي رواية : [خمس دعوات يستجاب لهنّ دعوة المظلوم حتّى يتنصر ودعوة الحاجّ حتّى يصدر ودعوة الغازي حتّى يقفل ودعوة المريض حتّى يبرأ ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب وأسرع هذه الدعوات إجابة دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب]² .
وأخرج البزار عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : [ثلاث حقّ على الله أن لا يردّ لهم دعوة الصائم حتّى يفطر والمظلوم حتّى يتنصر والمساfer حتّى يرجع]³ ، انتهى .
وهذه الأحاديث كلها من سهام الإصابة في الدعوات المستجابة ، للجلال السيوطي ، رحمه الله .

خاتمة :

ينبغي العمل بها لمستحقها ، فإنها سريعة الهلاك ، وقد جربت مرارا ، وهي منقولة من كتاب سر الكواكب في دعوة سورة الفيل : تصوم لله تعالى ثلاثة أيام متوالية ، وتقرأ السورة المذكورة كل يوم ألف مرة [89] وتدعو بهذا الدعاء أربع مرات في كل يوم ، وهو هذا : بسم الله الحي القيوم ، القادر القاهر ، المقندر ، القهار ، ذي القدرة⁴ والبطش ، إلهي ! عبد من عبيدك بغي عليّ وتجبر ، وأنت الحكم العدل ، وقد خاصمناه إليك ، وتوكلنا في كشف ظلامتنا منه عليك ، اللهم خذ بعلمك ، فإنه لا يعظم عليك ، وسلط عليه آفة من آفاتك ، حتى تحوجه إلى أقل خلقك ، و سوّخه على هامته سوخ السجيل على أصحاب الفيل ، وأنكسه ، وأوكسه ، وأخلصه ، وأبلسه ، وأخرسه ، وأعكسه ، وشتته ، ومزقه ، واقمعه ، واخسفه ، وأنكله ، ودمره وخذه بنائبات الليالي ، جدي المسير إليه ، فإننا بك نرجو خلاصنا من بين يديه ، واتركه صريعا والنائحات عليه ، سوقي إليه الرزايا يا سوقي الرزايا إليه ، واسلبه سريعا جميع ما بين يديه ، فإننا بك نرجو خلاصنا من بين يدي فلان ، ﴿ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾⁵ ، ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾⁶ ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار المؤلف — رحمه الله تعالى — إلى صلة الرحم ، بقوله :

وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْأَقَارِبِ كُلِّهِمْ بِتَذَلُّلٍ وَإِسْمَحْ لَهُمْ إِنْ أَدْنَبُوا

¹ جامع الأحاديث 4/231 (3106)

² الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير - السيوطي (6067)2/86

³ الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير - السيوطي (5528)2/40

⁴ كتب : القدر

⁵ محمد 10

⁶ الأحقاف 25

قوله : **وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ** ، أي لَّيِّنْ جَنَاحَكَ ، وقوله : **لِلْأَقْرَبِ كِلْهِمْ** : تأكيد لصلة الرحم ، وقوله : **وَأَسْمَحْ لَهُمْ إِنْ أَذْنَبُوا**، فيه [90] إشارة للحث على المسامحة لهم، وإنْ قَصَرُوا في حقه ، وعدم القطيعة المحرمة لهم ، فقد ورد في الآيات القرآنية والأحاديث الحث الأكيد ، والتأكيد الشديد على صلة الرحم ، أما الآيات فمنها قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَكَأَنَّهُمْ يَنْفِقُونَ الْمِثْقَالَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** ﴾¹ . اعلم أن في هذه الآية تأكيد الحث على صلة الأرحام ، وما يحمل الموفق على أن يبذل في ذلك جهده ؛ حتى يتحلى بهذه الأوصاف المذكورة في الآية ، كالوفاء بعهد الله ، وهو ما أكدته الله علينا من امتثال أوامره أن يوصل ، واجتناب نواهيه ، وعدم نقض الميثاق ، وصلة ما أمر الله به أن يوصل ، وخشية الله ، وخوف سوء الحساب . وقال تعالى : ﴿ **وَأْتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ** ﴾² ، يعني من الصلة والبر ، وذو القربى مَنْ بينك وبينه قرابة .

وأما الأحاديث فمنها قوله صلى الله عليه وسلم : [**إِنَّ الْبِرَّ وَالصَّلَةَ لِيَخْفِئَا سِوَى الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**]³ .

ومن الآيات قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى** ﴾⁴ ، يعني صلة لرحم ، فتأمل كيف قرن الله الصلة بالعدل والإحسان ، كونه يصل الرحم من التأكيد ، وأنه لا يتم من أحد عدل ، ولا إحسان إلا إن وصل رحمه ، وإلا كان جائراً سيئاً فظيعاً . وفي حديث : [**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**]⁵ [91] **فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِلْ خَيْرًا ، أَوْ لِيَصْنُتْ**]⁵ وفي رواية : [**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمُرِهِ ، وَيُوسَّعَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُدْفَعَ عَنْهُ مِيتَةُ السُّوءِ ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ ، وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**]⁶ .

وفي رواية ضعيفة : [**إِنَّ الصَّدَقَةَ وَصِلَةَ الرَّحِمِ يَزِيدُ اللَّهُ بِهِمَا فِي الْعُمُرِ ، وَيُدْفَعُ الْمَكْرُوهَ وَالْخَذُورَ ، وَيَذْهَبُ بِهِمَا مِيتَةُ السُّوءِ**]⁷ .

¹ الرعد 20 ، 21

² الإسراء 26

³ جامع الأحاديث - ويشتمل على جمع الجوامع للإمام السيوطي ، للسيوطي (6183)7/227

⁴ النحل 90

⁵ كتب : [**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِلْ خَيْرًا ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصْنُتْ**] ، وما أثبتناه من صحيح البخاري (6138)8/39

⁶ المسند الجامع 31/136 (10228) .

⁷ مجمع الزوائد ، ومنبع الفوائد - الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (13455)8/72 ، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة 1/13 : ضعيف

وفي رواية أنه قال صلى الله عليه وسلم، قال: مكتوب في التوراة: [مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَادَ فِي عَمْرِهِ ، وَأَنْ يُزَادَ فِي رِزْقِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ] ¹ .

وفي رواية ضعيفة عن أبي الدرداء أنه قال : ذكروا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرحام ، فقلنا : مَنْ وصل أنسى في أجله ، قال : [إنه ليس يزاد في عمره ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾] ² ، ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة ، فيدعون له من بعده ، فيبلغه ذلك فذلك الذي ينسأ في أجله] ³ .

وبهذه الرواية أخذ جماعة ، فقالوا : إن الزيادة في العمر المذكور في الأحاديث زيادة البركة ، والذرية الصالحة ، لتدعو له بعد موته .

وقال الآخرون : لا مانع أن تكون زيادة حقيقية ، لقوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ ⁴ ، أي يمحو في اللوح المحفوظ ما يقبل الزيادة والنقص ، لكون القضية فيه معلقة بنحو : فلان عمره عشرة [92] إن لم يصل رحمه ، وعشرون إن وصل ، والذي في أم الكتاب ليس إلا أحدهما ، باعتبار ما يعلم الله وقوعه ، لا غيره ، ويدل لذلك ما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ ، قال : من أحد الكتابين ، هما كتابان ، يمحو ما يشاء من أحدهما ، ويثبت ، وعنده أم الكتاب ، وصح عنه أيضا أنه قال : لا ينفع الخذور من المقدور ، ولكن الله يمحو ما يشاء بالدهاء من القدر .

وفي رواية: [ما من أهل بيت وصلوا رحمتهم إلا أجرى الله عليهم الرزق ، وكانوا في كنف الله] ⁵ .

وفي رواية : [إن أعجل الطاعات صلة الرحم ، وإن أهل البيت ليكونون فجارا ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم إن وصلوا أرحامهم] ⁶ .

¹ وعن ابن عباس : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [في التوراة مكتوب من أحب أن يزاد في عمره ويزاد في رزقه ، فليصل رحمه] . البزار 1880 والحاكم 4/160 وقال صحيح الإسناد .

² الأعراف 34 ، والنحل 61

³ جاء في فتح القدير ، للشوكاني 2/288 ، برواية أبي الدرداء ما نصه : تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا من وصل رحمه أنسى في أجله فقال إنه ليس بزائد في عمره قال الله تعالى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة فيدعون الله من بعده فيبلغه ذلك فذلك الذي ينسأ في أجله وفي لفظ فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر . قال الشوكاني فيه نكارة .

⁴ الرعد 39

⁵ جاء في الكامل في الضعفاء ، لابن عدي 5/522 ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما [إن أهل البيت إذا تواصلوا أجرى الله عليهم الرزق وكانوا في كنف الرحمن] . وقال ابن عدي : فيه عيب الله الوصافي ضعيف جدا .

⁶ ورد هذا الحديث في كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتركين ، عن أبي الدهماء وهو شيخ من أهل البصرة يروي عن محمد بن عمرو روى عنه أبو جعفر النخعي كان ممن يروي المقلوبات ويأتي عن الثقات بما لا يشبه حديث الأثبات فبطل الاحتجاج به إذا انفرد وهو الذي روى عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [إن أعجل الطاعات ثوابا صلة الرحم وإن أهل البيت ليكونون فجارا فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم وإن أعجل المعصية عقوبة البغي والخيانة ويمين الغموس تذهب المال وتذر الدار بلاق] .

وفي رواية : [إِنَّ اللَّهَ لَيُعَمِّرُ لِقَوْمِ الدِّيَارِ وَيُكَثِّرُ لَهُمُ الْأَمْوَالَ وَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ مُنْذُ خَلَقَهُمْ بَعْضًا لَهُمْ بِصِلَتِهِمْ أَرْحَامَهُمْ]¹ .

وفي رواية : قال صلى الله عليه وسلم : [قال الله للرحم : خلقتك بيدي ، وشققت لك من اسمي اسما ، وقربت مكانك مني ، وعزيت وجلالي لأصلن من وصلك ، ولأقطعن من قطعك ، ولا أرضى حتى ترضى]² .

وفي رواية : [مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةُ — مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ — مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَالْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ ، وَإِنْ أَعَجَلَ التَّوْبَةَ ثَوَابًا لَصَلَةِ الرَّحِمِ ، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَكُونُونَ فَجْرَةً ، فَتَنَمُو أَمْوَالَهُمْ ، وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ إِذَا تَوَاصَلُوا]³ . [93]

وفي رواية ضعيفة [صَلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بَرَدَ السَّلَام]⁴ ، وروى الطبراني : [برؤا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَام]⁵ .

وفي رواية [مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ : " أَتَقَاهُمْ لِلرَّبِّ ، وَأَوْصَلَهُمْ لِلرَّحِمِ ، وَأَمَرَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَأَنَّهُاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ]⁶ .

وفي رواية البخاري وغيره : [لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا]⁷ .

وفي رواية عن الطبراني ، وابن عساكر : [يا أيها الناس ! لا نبي بعدي ، ولا أمة بعدكم ، ألا فاعبدوا الله ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وصلوا أرحامكم ، وأدؤا زكاة أموالكم ؛ طيبة بها نفوسكم ، وأطيعوا ولاية أموركم ، تدخلوا جنة ربكم]⁸ .

وفي رواية صحيحة [إِنَّ اللَّهَ لَيُعَمِّرُ لِقَوْمِ الدِّيَارِ وَيُكَثِّرُ لَهُمُ الْأَمْوَالَ وَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ مُنْذُ خَلَقَهُمْ بَعْضًا لَهُمْ بِصِلَتِهِمْ أَرْحَامَهُمْ]⁹ .

¹ الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير - السيوطي (3467)1/321

² كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري (6951)3/363 .

³ الإنافة فيما جاء في الصدقة والضيافة - ابن حجر الهيتمي ، والذي في سنن أبي داود (4904)4/427 : عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا - مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ - مِثْلُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ » .

⁴ نسب للإمام علي كرم الله وجهه .

⁵ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية - ابن حجر ، رقم الحديث: 2597

⁶ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - ابن أبي الدنيا ، رقم الحديث: 23

⁷ صحيح البخاري (5991)8/7 .

⁸ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (12923)5/295

⁹ الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير - السيوطي (3467)1/321 ، وانظر : الإنافة فيما جاء في الصدقة والضيافة - ابن حجر الهيتمي .

وفي رواية : [الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ]¹ .

وفي رواية [مَا مِنْ عَمَلٍ أَطِيعَ اللَّهَ فِيهِ أَعْجَلَ ثَوَابًا مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ]² .

وفي رواية : [مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَطُولَ أَيَّامُ حَيَاتِهِ ، وَيُزَادَ فِي رِزْقِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ]³ .

وفي رواية [أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَكْرَمِ خَلَائِقِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَصْفَحَ عَمَّنْ شَتَمَكَ]⁴ .

وفي رواية [أَسْرَعُ الْخَيْرِ ثَوَابًا ، الْبِرُّ وَصِلَةُ الرَّحِمِ ، وَأَسْرَعُ الشَّرِّ عُقُوبَةً ، الْبَغْيُ وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ]⁵ .

وفي رواية بسند متروك : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال [94] يا رسول الله ! إن لي أهلا ، وأما وأبا ، فأيهما أحق بصلتي ، قال : [أمك وأبوك ، وأختك ، وأخوك ، ثم أدناك]⁶ .

وفي رواية ، أخرج الطبراني والحاكم [أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ الْقَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ ، وَرَجُلٌ فَقِيرٌ عَفِيفٌ مُصَدِّقٌ]⁷ .

وفي رواية ، أخرج ابن أبي شيبة ، والحاكم ، وصححه ، عن عبد الله بن سلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ]⁸ .

¹ كتب : إنَّ الرحم لتتعلق بالعرش يوم القيامة ، فتقول : يا رب! اقطع من قطعني ، وصل من وصلني ، وما أثبتناه من صحيح مسلم 8/7(6683) .

² مسند أبي حنيفة ، لابن يعقوب ، رقم الحديث : 836 ، والحديث بتمامه : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَا مِنْ عَمَلٍ أَطِيعَ اللَّهَ فِيهِ أَعْجَلَ ثَوَابًا مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ ، وَمَا مِنْ عَمَلٍ غَصِيَ اللَّهُ فِيهِ أَعْجَلَ عُقُوبَةً مِنَ الْبَغْيِ ، وَالْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ تَدْعُ الدَّيَارَ بِلَاقِعٍ " .

³ المستدرک علی الصحیحین - محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري 4/177(7279) .

⁴ الذي جاء في مسند أحمد 3/428(15656) : [أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من منعك وتصفح عمن شتمك] . تعليق شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

⁵ سنن ابن ماجه 5/297(4212) .

⁶ في مسند أحمد 2/226(7105) : عن أبي رمثة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [يد المعطي العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك وقال رجل يا رسول الله هؤلاء بنو يربوع قتله فلان قال ألا لا تجني نفس على أخرى ، وقال أبي قال أبو النضر في حديثه دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ويقول يد المعطي العليا] . تعليق شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن

وفي مسند أحمد أيضا 5/377(23250) : عن الأشعث بن سليم عن أبيه عن رجل من بني يربوع قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فسمعتة وهو يكلم الناس يقول : [يد المعطي العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك ، فقال رجل : يا رسول الله ! هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع الذين أصابوا فلانا قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا لا تجني نفس على أخرى] . تعليق شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح . وفي مستدرک الحاكم 4/167(7245) : عن أبي رمثة قال : انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعتة يقول : [بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك] .

⁷ فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم رقم الحديث: 23

⁸ إثارة الفوائد ، رقم الحديث: 350

وفي رواية : [أعمال بني آدم تُعرض كل خميس ، ليلة الجمعة ، فلا يقبل منها قاطع رحمه]⁹ .
وفي رواية ، قال صلى الله عليه وسلم : [ثلاثة لا يدخلون الجنة : مُدْمِنُ الخمر ، وقاطع الرحم ، ومُصدّق بالسحر]² .

وفي رواية ، قال صلى الله عليه وسلم : [إذا الناس أظهروا العلمَ وضيعوا العملَ ، وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب ، وتقاطعوا في الأرحام ، لعنهم الله عند ذلك ، فأصمهم وأعمى أبصارهم]³ .

وفي رواية ، أخرج أبو الشيخ ، عن ميمون بن مهران ، قال : قال لي عمر بن عبد العزيز : لا تؤاخي قاطع رحم ، فإن الله لعنهم في القرآن في سورتين : سورة الرعد ، وسورة محمد .
وفي رواية ، أخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [إذا لم تمش إلى ذي رحمك برجلك ولم تُعْطِهِ مِنْ مَالِكَ فَقَدْ قَطَعْتَهُ]⁴ .
وفي رواية ، قال صلى الله عليه وسلم : [الرحم [95] مُعَلَّقةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ]⁵ .

وقال صلى الله عليه وسلم : [قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ]⁶ .

تنبيه :

اعلم أن كون قطع الرحم كبيرة هو صريح أحاديث كثيرة ، وبهذا توقف بعضهم ، قال صلى الله عليه وسلم : [القاطع لا يدخل الجنة ، وأنه ما من ذنب أجدر أن تعجل عقوبته من ذنب قاطع الرحم] ، وأن الله لا يقبل عمله ، فحينئذ لا مسأغ للتوقف في أنه كبيرة ، بل إنه أعظم الكبائر ، وهذا هو الحق الموافق لصريح تلك الأحاديث .
وقال بعض أئمتنا : لا ينبغي التوقف في ذلك ، مع النص في القرآن على لعن فاعله ، والمراد بقطيعة الرحم كما قاله العراقي⁷ : ينبغي أن يختص بالإساءة ، وقال غيره : لا ينبغي أن

⁹ مسند أحمد 2/483 (10277) .

² الفوائد المنتقاة رقم الحديث: 122

³ العقوبات - ابن أبي الدنيا رقم الحديث: 10

⁴ جامع البيان - ابن جرير الطبري 13/188

⁵ كتب : إنَّ الرحم لتتعلق بالعرش يوم القيامة ، فتقول : يا رب! اقطع من قطعتني ، وصل من وصلني ، وما أثبتناه من صحيح مسلم 8/7 (6683) .

⁶ الجامع لأحكام القرآن - القرطبي 1/100

⁷ الحافظ العراقي (725 - 806 هـ) : عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، أبو الفضل، زين الدين، المعروف بالحافظ العراقي: باحث، من كبار حفاظ الحديث. أصله من الكرد، ومولده في رازنان (من أعمال إربل) تحول صغيراً مع أبيه إلى مصر، فتعلم ونبغ فيها. وقام برحلة إلى الحجاز والشام وفلسطين، وعاد إلى مصر، فتوفي في القاهرة. من كتبه: المغني عن حمل الاسفار في الاسفار - في تخريج أحاديث الاحياء، و نكت منهاج البيضاوي - في الاصول، و ذيل على الميزان ، والالفية - في مصطلح الحديث، وشرحها(فتح

يختص بذلك ، بل ينبغي أن لا يتعدى إلى ترك الإحسان ، لأنّ الأحاديث آمرة بالصلة ، ناهية عن القطيعة ، ولا واسطة بينهما ، والصلة إيصال نوع من أنواع الإحسان ، والقطيعة ضدها ، وهي ترك الإحسان ، والظاهر أنّ الأولاد والأعمام والخالات من الأرحام ، انتهى .

تنبيه :

نأتي في جملة من الآيات والأحاديث الناصحة ، على ما في قطيعة الرحم من الوبال ، والنكال ، والوعيد الشديد ، والتحذير الأكيد ، فتفرع لسماعها أذنك ، ويضعف لفهمها ذهنك ، [96] واحذر ممن يدخل الكلام من أحد أذنيه ، ويخرج من الأخرى ، فإنّ أمثال هؤلاء لا يؤجّه إليهم الخطاب ، ولا يُرجى لهم صلاح ، ولا حسن مآب ، ومن له أدنى عقل يُزكّي نفسه عن هذه السفاسف ، ويسعى في صلة رحمه بكل نوع من أنواع البر والاتلاف ، يسلم من هذا الخطر ، وليُقضى له من الله جميع الوطر ، قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾¹ ، المستفاد من العطف بالواو ، والدال على عظم فضل صلة الرحم ، ووبال قطعه ، كيف والله يأمر باتقاء قطعه ، كما يأمر باتقاء عذابه ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾² ، وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾³ وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾⁴ . وفي هذه الآيات تشديدات كثيرة على قاطع الرحم ، بأنهم من جملة من قطع ما أمر الله به أن يُوصل ، ومن كان عنده أدنى يقظة وفهم وتدبير ، فليرجع عن قطيعة الرحم بأدنى مما دلّت عليه الآيات القرآنية .

وأخرج ابن حميد عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : [**صِلُوا أرحامكم**] [97] ، فإنه أتقى لكم في الحياة الدنيا ، وخير لكم في الآخرة]⁵ . وفي رواية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [**اتَّقُوا اللَّهَ وَصِلُوا الْأَرْحَامَ**]⁶ .

المغيث) ، والتحرير - في أصول الفقه ، ونظم الدرر السنية - منظومة في السيرة النبوية ، و الالفية - في غريب القرآن ، و القرب في محبة العرب - رسالة ، وتقريب الاسانيد وترتيب المسانيد ، و ذيل على ذيل العبر للذهبي ، و معجم - ترجم به جماعة من أهل القرن الثامن للهجرة ، والتقيد والايضاح - في مصطلح الحديث ، و طرح النثر في شرح التقريب ، و شرح الترمذي ، وغير ذلك ، وهو كثير . الأعلام ، للزركلي 3/345

¹ النساء 1

² آل عمران 28 ، 30

³ محمد 22-23

⁴ الرعد 25

⁵ موسوعة الأحاديث القدسية ، الحديث رقم 110

⁶ الفتح الكبير 1/35 (227) .

وفي رواية ، أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله تعالى :
﴿وَاللَّارْحَامَ﴾ أي اتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وقال صلى الله عليه وسلم : [مِنْ أَرْبَى الرَّبِّا
الْإِسْطَالَةُ فِي عَرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَإِنَّ هَذِهِ الرَّحِمَ شَجَنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَمَنْ
قَطَعَهَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ]¹ .

وفي رواية ، قال الله تعالى : [الرَّحِمَ شَجَنَةٌ مِنِّي فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ]² ،
والشجنة — بكسر أولها المعجمة — أي القرابة المشتبكة ، كاشتباك العروق ، ومعنى من الرحمن ،
أي مشتق لفظها من لفظ اسمه تعالى الرحمن ، فتأمل وفقك الله لطاعته ، وطاعة رسوله صلى الله
عليه وسلم ، ما أفاده صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث من قطيعة الرحم ، لعل الله تعالى
يحملك على وصلها بمنه وكرمه .

خاتمة :

ينبغي للإنسان أن يتجاوز عمّا وقع من أقاربه في حقه ، وأن يُحسن إليهم ، كما وقع
ليوسف مع إخوته ، صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، لأنّ مَنْ تأمل ما وقع له هان عليه ما فعله
أقاربه معه .

ثم اعلم أنّها وقعة عجيبة ، تشتمل على عجائب وغرائب ، وحكم وأحكام ، وعبر
وأمثال ، وذلل وانخفاض ، وعلو وارتفاع ، وعل خسة عاقبة الحسد ، وعلى نصرة الحق ، وإنّ لم
يكن له أعوان ، ولا أنصار ، وعلى خذلان المبطل ، وإنّ كان أنصاره [98] وأعوانه الوزراء
والمملوك ؛ فضلا عن غيرهم ، وعلى أنّ عاقبة العفة عما حرّم الله تعالى أجمل العواقب وأكملها ،
وعلى عاقبة الكذب على أولياء الله تعالى ، ورميهم بالبهتان فإنه أَرْدَى العواقب ، وعلى أنّ
التباغض والتحاسد بين الإخوة أمر قديم ، قلّ أن يسلم منه فخير أو ذميم ، وإنّ كملوا وجلّوا ،
وعلت مراتبهم ، وزكت معادهم ومذاهبهم ، كما إنّ أخوة يوسف صلى الله عليه وسلم قد وقع
منهم ما وقع ، مع كونهم أنبياء بنص القرآن ، قال تعالى : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا
أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾³ ، اتفقوا على أنّ المراد بالأسباط هم
أولاد يعقوب ، فكوننا أمّنا بالإيمان بما أنزل إلى أبيهم ، وبما أنزل إليهم ظاهرا ، ونص في أنه
أنزل عليهم ما يجب علينا الإيمان به إجمالا ، وهذا صريح في نبوتهم ، فقد نستكمل ما وقع منهم
في هذه القصة من الأمور ، التي ظواهرها يجب تنزيه الأنبياء ، صلى الله على نبينا وعليهم وسلم

¹ المسند الجامع 16/26 (4813) .

² المطالب العالمة بزوائد المسانيد الثمانية - أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني
(2523)11/286

³ البقرة 136

عنها ، بناء على أن الأصح ، بل الصواب أن الأنبياء جميعهم : الرسل وغيرهم معصومون قبل النبوة وبعدها من كبائر المعاصي وصغائرها ، عمدتها وسهوها .

واعلم أن من صبر على أذى اخوته وأقاربه ، ولم يقابلهم بسوء فعلهم معه ، ظفّره الله تعالى بهم ، ونصره عليهم ، وأحوجهم إليه ، وأدخلهم تحت ذله وقهره ، وزاده بذلك من الكمال والرفعة ما تتعجب منه العقلاء ، فكن على هذه الشرطية ؛ لتنال هذه المعاني ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾¹ [99] ، وقال الحسن وغيره ، وأخرج ابن جرير² عن ابن إسحاق قال : إِنَّمَا قَصَّ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ يُوسُفَ ، وَبَغْيَ إِخْوَتِهِ عَلَيْهِ وَحَسَدَهُمْ إِيَّاهُ ، حِينَ أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنُبُوَّتِهِ ، فَإِذَا سَيِّقَتْ لِيَأْتَسَىٰ بِهَا نَبِيْنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مع الكمال الأعظم ، فكيف لا تتأسى بها أنت مع نقصك عنهم ؟ وتقابل أرحامك بإساءتهم ، بل ربما زدت عليها ، غافلا عن أحوال الناس الكُمل ، وما وقع لهم من تحمّل الأذى ، وجبل صبرهم على ذلك ، ورضاهم به ، فعليك يا أخي باتباعهم ، لتنال شيئا من أنواع كما لهم ، وتتخلق ببعض أحوالهم .

وتأمل علم يعقوب ، صلى الله على نبينا وعليه وسلم ب ، ما يقع بين الإخوة ، وخوفه منهم ، حيث قال لما أخبره برؤيته لتلك الكواكب الأحد عشر ، والشمس والقمر اللذان هما أبوه وأمه : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾³ ، قال : فخشي يعقوب من إخباره لهم بهذه الرؤية المؤذية بعلوه عليهم ، أن يحسدوه ويكيدوه ، بما يفرقون به بينه وبين أبيه ؛ حتى يُخلّوا وجهه إليهم ، فكان الأمر كما ظن يعقوب .

واعلم أن ابن جرير ، وابن أبي حاتم أخرجا قصة يوسف عن السدي بتمامها بطولها ، وفيها شرح لكثير من آياتها ، وخلافاتها ، مع الزيادة عليها : أن يعقوب — عليه السلام — كان نازلا [100] بأرض الشام ، وكان الأقرب إليه من أولاده يوسف وأخوه بنيامين ، فلذلك حسده إخوته الباقون ، لما بلغهم خبر رؤياه السبقة ، فترايوا ماذا يصنعون به ، فقال لهم يهودا : لَا تَقْتُلُوهُ وَالْقُوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ، قال : فأتوا أباهم بأنه في ضلال مبين ، ثم قال بعضهم : اقتلوا يوسف ، أو أبعادوه عن وجه أبيه ، يَخْلُ لَكُمْ ، ثم تتوبون مما فعلتم ، فقال لهم يهودا : لا تقتلوه ، ولكن ألقوه في الجب ، وهو بئر من بعض آبار نواحي بيت المقدس بقرية طبرية⁴ ، ثم أتوا أباهم ،

¹ يوسف 7

² تفسير الطبري 13/17/ قرص المكتبة الشاملة .

³ يوسف 5

⁴ طبرية : بلدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهي في طرف جبل ، وجبل الطور مطل عليها وهي من أعمال الأردن في طرف الغور بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين بيت المقدس وبينها

وعملوا هذه الحيلة في طلبه منه ؛ حتى أرسله معهم ، فلمّا برزوا به إلى البريّة ، أظهروا له العداوة ، وبالغوا في ضربه ، ولطمه على وجهه ، وهو يستغيث فلا يُعَاث ؛ حتى أشرفوا على قتله ، فزجرهم عنه يهودا ، فانطلقوا به إلى الجب ، فأدلوه فيه ، فأمسك شفير البئر ، فربطوا يديه ، ونزعوا قميصه من عليه ، فاستغاث بهم في عدم نزع القميص ، فقالوا له : ادع الأحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر يؤنسوك ، ثم أدلوه ، فلمّا أن بلغ إلى نصف البئر ، ألقوه من أيديهم ليموت ، فكان في البئر ماء ، فلم يضرّه ، فأوى إلى صخرة فيها ، فناداه اخوته ، فظنّ أنّها رِقّة أدركتهم ، فأجابهم ، فأرادوا أن يرموه بصخرة ليقتلوه بها ، فمنعهم يهودا من ذلك ، وكان يأتيه بالطعام ، ثم أنهم أخذوا جديا ، وذبحوه ، ونضحوا دمه على قميص يوسف ، وذلك قوله تعالى [101] : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾¹ ، ثم أقبلوا إلى أبيهم عشاء ييكون ، فلمّا سمع أصواتهم فزع فزعا شديدا ، فدخلوا عليه ، وأخبروه بأكل الذئب ليوسف ، لمّا تركوه عند متاعهم ، أي غنمهم ، لأنهم كانوا رعاة ، فبكى يعقوب ، وصاح بأعلى صوته ، ثم قال لهم : أين قميص يوسف ، فجاؤا به ، فضمه لوجهه ، وبكى حتى تلوث وجهه من دمه ، ثم قال : يا بني ! إنّ هذا الذئب لرحيم ، كيف أكل لحمه ، ولم يخرق قميصه ، أي كأنه حصل له نوع من التسلي لتوهمه أن يوسف لم يمت ، ولم يأكله ذئب ، قيل : واستمر يوسف في البئر ، حتى مرّت به قافلة ، فأرسلوا من يرد لهم الماء ويستقي ، فأدلى دلوه ، فتعلق يوسف بجبله ، فلمّا رآه دعا صاحبه واسمه بشراي ، فسمعه اخوة يوسف ، فجاؤه ، وقالوا : هذا عبد لنا أبق ، وبطنوا ليوسف لئن أنكرت ما قلناه قتلناك ، فسألهم أن يردوه إلى أبيه ، ويضمن لهم رضاه عنهم ، فأبوا فاعترف يوسف أنّه عبدهم ، فاشتراه الرجالان بدراهم بخسة ، أي قليلة ، ثم خشى الرجالان أن أهل القافلة يشاركونهم فيه ، فاتفقا على أن يقولوا إنه بضاعة استبضعناها من أهل البئر ، قال : فلمّا وصلا به إلى مصر ، اشتراه ملكها ، قيل : وكان مسلما ، وأمر زوجته أن تكرمه إكراما زائدا ، فأحبته حبا شديدا ، وقالت له : ما أحسن وجهك يا يوسف ، قال : هو للتراب ، والدود يأكله ، ثم دعتة إلى نفسها [102] فعصمته النبوة ، فلم يقع منه ، وحينئذ ما صح عن ابن عباس وغيره من أنه همّ بها ، وجلس بين قدميها ؛ حتى رأى البرهان المختلف فيه على أقوال كثيرة ، فولّى هاربا ، فأدرّكته ، وشقّت قميصه من خلفه ، وإذا هو بزوجها ، قيل : وابن عمها عند الباب ، فبادرت بشكايتها إلى زوجها ، فقال يوسف : هي راودتني عن نفسي ، فقال ابن عمها : القميص يُبين ، فلمّا رآه شقّ من خلفه ، وقيل : كان طفلا ، فأنطقه الله تعالى ببراءته ثم

وبين عكا يومان وهي مستطيلة على البحيرة عرضها قليل حتى تنتهي إلى جبل صغير فعنده آخر العمارة .
معجم البلدان - ياقوت الحموي - باب الطاء وابعاء .

¹ يوسف 18

يكتّم ، وأمرها أن لا تعود ، ثم سمعت بقول النسوة عنها أنها راودته ، وأنّ حبّه قد وصل إلى شغاف قلبها ، فأرسلت إليهن ، وأعدت لكل منهن متكأ تتكى عليه ، وآتت لكل منهن سكيناً وأترجة تأكلها ، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن ، فلمّا رأيته دُهنش ، وقطّعن أيديهن ، وهنّ لا يشعرن بذلك ، فعذرنا ، فلمّا رأى تلهيهن عليه ، سأل ربه السجن ، فزيّنته له امرأة العزيز ؛ حتى سجنته ، فرأى في السجن رجلين قد غضب عليهما الملك ، فقال لهما يوسف : إني أعبر الأحلام ، فقصا عليه رؤيتهما ، فكان الأمر كما قال ، ثمّ لما أراد الناجي منهما الخروج ، فقال له يوسف : اذكرني عند الملك ، فلمّا رأى الملك تلك الرؤيا¹ ، جمع السحرة والكهنة وغيرهم ، فلم يعرفوا تأويلها ، فتذكر صاحب يوسف ، فقال للملك أرسلني إلى من يعرفها ، فقصها عليه ، فأولّها له ، فعاد إلى الملك ، وأخبره بذلك ، فقال الملك ائتوني به ، قال : فأبي ، فحصل في نفس العزيز منه شيء ، فجمع الملك تلك النسوة ، فبهرأن وأخبرنه [103] أنّ امرأة العزيز ذكرت أنها راودته عن نفسه ، فسُئلت فاعترفت ، فعلم الملك وغيره ببراءته ، فاستخلفه على مصر ، فانتهى جميع أمرها إليه ، فلما غمر الجوع بلاد يعقوب ، أرسل بنيه إلى مصر ، إلّا بنيامين ، شقيق يوسف ، فدخلوا على يوسف ، فعرفهم ، وهم لا يعرفونه ، فسألهم عن حاجتهم ، فقالوا : ننتار لأهلنا طعاماً ، فشدد عليهم ؛ حتى أخبروه أنهم عدّة اخوة ، بنو نبي الله يعقوب ، وأنّ له ابنين آخرين ، أكل الذئب أحدهما ، فطلب منهم أخاهم الصغير ، ليستدلّ على صدقهم ، وإلّا يمنعهم الميرة² ، لأنهم جواسيس ، فقالوا له : نفعل ذلك ، فقال لهم : ضعوا عندي بضاعتكم رهينة ، فرهنوا عنده أخاهم شعون ، ثم أمر عمّاله أن يدسوا ما جاءوا يشترون به في رحالهم ، ففعلوا ذلك ، فلمّا جاءوا إلى أبيهم ، وأخبروه بمزيد الكرامة ، وما قال لهم ، وأننا إن لم نأته بأخيّن الصغير ، وإلّا لم يعطنا شيئاً ، ثم فتحوا رحالهم ، فوجدوا بضاعتهم رُدّت إليهم ، فأكدوا في طلب أخيهم ، فطلب منهم يعقوب أن يؤتوه مواليقهم ؛ ليردوه إليه ، إلّا أن يتعذر عليهم ، فتوكل على الله ، وخاف عليهم من العين ؛ لباهي صورهم وجمالهم ، فأمرهم إذا وصلوا مصر ، أن لا يدخلوا من باب واحد ، ففعلوا ذلك ، ودخلوا على يوسف ، فعرف أخاه بنيامين ، فبالغ في إكرامهم ، وأمر لكل اثنين منهم بفرش ، فبقي أخوه بنيامين ، فأخذه [104] لينام معه على فراشه ، فجعل يشم ريحه ، وينضم إليه ، ولم يعلمه أنه يوسف ، وأمّا معنى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾³ ، أي في مقام أخيك الهالك ، ذكره وهب بن منبه ، ثم أمر بتجهيزهم ، وجعل السقاية ، وهي جام يُشرب فيه ، وهي المسمى بالصواع أيضاً ، قيل : وكان فضة ، أو نحاساً ، أو من ذهب ، أقوال ، في رحل

¹ رؤيا الملك : سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف
² مَارَهُمْ مِيرًا مِنْ بَابِ بَاعَ أَتَاهُمْ بِالْمِيرَةِ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَهِيَ الطَّعَامُ وَامْتَارَهَا لِنَفْسِهِ . المصباح المنير (م ي ر)

أخيه بنيامين ، من غير علمه ، ثم أرسل في آثارهم ؛ مناديا ﴿أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾¹ ، فانقطعت ظهورهم ، فأخبرهم أن صاع الملك سُرق ، فقالوا : مَنْ سرق خذوه ، واسترقّوه ، ففتّشت رحالهم ، وجعل رحل بنيامين آخرهم ، فوجدوه فيه ، فأخذهم بقولهم ، وقال : نفعل ما قلتم ، وذلك قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾² ، أي اصطنعنا له أخذه من قولهم ، لأنّ أخذه لم يكن من حكم ملك مصر ، وإنما كان من شريعة يعقوب ، فأنطقهم بهذه العلة ؛ ليأخذه بها ، ثم إنهم وبّخوه على ما فعل ، وقالوا : ما نزل بنا من بلاء إلاّ منكم يا بني راحيل ، وهو اسم أم يوسف وبنيامين ، فقال : بل نحن المبتلون بكم ، ذهبتم بأخي يوسف ، وأهلكتموه ، وإنما وضع الصاع في رحلي من وضع الدراهم في رحالك في المرة الأولى ، فقالوا : لا تذكرها ، تؤخذ منا ، قال : فأدخلوهم على يوسف ، فدعا بالصواع ، ونقر فيه ، ثم أخبرهم أنّ الصواع أخبر بأنكم اثنا عشر ، وأنكم بعتم واحدا منكم بثمان بختس [105] فقال له بنيامين : سله : أخي حيّ أم لا ؟ فنقره ثانيا ، فقال : هو حيّ ، ستراه ، فقال : سله : مَنْ أخذه ؟ فامتنع ، فغضب عند ذلك أخوه روبيل ، فقال : أيتها الملك ! اتركنا وإلاّ أصيحنّ صيحة ، لا تبقي امرأة حاملة إلاّ أسقطت ، وقام شعره ؛ حتى خرج من ثيابه ، فقال يوسف لابنه : مرّ بجنبه ومسه ، وكان بنو يعقوب إذا غضب أحدهم ، ومسه الآخر ، زال غضبه ، ففعل ذلك ابن يوسف ، فزال غضب عمه روبيل ، فقال : إنّ هاهنا بذر من بذر يعقوب ، فقال يوسف : مَنْ هو يعقوب ؟ فغضب عند ذلك روبيل ، وقال : أيتها الملك ! تذكر يعقوب ، فإنه صفي الله ابن ذبيح الله ابن خليل الله ، قال : فأمره يوسف أن يقرأ عليه السلام إذا رجع إليه ، ويقول له : إنّ ملك مصر يدعو لك أن ترى ابنك يوسف ، ثم أخرج لهم أخاهم شمعون المرقن عنده ، فخرجوا وهم يتناجون ، فقال لهم : روبيل ، وكان أكثرهم علما أن يُقيم بمصر ؛ حتى يأذن له أبوه ، فرجع العشرة إلى أبيهم ، وأخبروه بجميع ذلك ، فبكى بكاء شديدا ، ثم أظهر لهم الصبر ، حتى أنه لم يذكر لهم ما فعلوه بيوسف ، وترجّى أنّ الله تعالى يرّدّ عليه الكل ، ثم أخبروه بدعاء الملك له ، فراد رجاءه ، لعلمه أنّ لا صديق له في الأرض إلاّ ولده ، فأمرهم بالعود إليه لعلهم يظفرون بيوسف وأخيه ، قال : فجاءوه ثانيا ، وهم قائلون : يا أيها العزيز ! ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾³ . الخ ، قال : [106] فرّق لهم يوسف ، وقال ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾⁴ ، فعرفوه عند ذلك ، واعتذروا إليه ، فقال : ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾⁵ ، أي لا تذكر لكم ذنبكم ، لأنّي قد عفوت عنكم ، ثم أمرهم أن يذهبوا بقميصه ،

¹ يوسف 70

² يوسف 76

³ يوسف 88

⁴ يوسف 89

⁵ يوسف 92

ليتردد به ما ذهب من بصر والده يعقوب ؛ لشدة بكائه عليه ، قال الحسن : وكان مدة غيبته ثمانين سنة ، ثم أمرهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فقال لهم يهودا : أنا الذي ذهبت إليه أولا بقميصه ، وقلت له : إِنَّ الذَّبَّ أَكَلَهُ ، فَلَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ثانيا ، ولأَفْرَحْتَهُ كما أحرزته ، قال : فلما فارقوا مصر ، وجد يعقوب ريح يوسف ، قد وصل إليه ، ووصل إليه البشير ، وحملهم أجمعين ، فلمَّا قربوا إلى مصر كلَّم يوسف الملك ، فخرجوا يتلقونهم ، فلمَّا واجههم يوسف ، رفع أباه وخالته على سريريه ، فلمَّا حضر يعقوب الموت أمره أن يدفنه عند إبراهيم وإسحاق بالشام ، ففعل ، وقال : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾¹ .. الخ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما ، هذا أول نبي سأل الله تعالى . هذا حاصل القصة العجيبة الغريبة ، التي من تأملها ، هان عليه ما يفعله أقاربه معه ، وقابلهم بالرضا والصبر ؛ حتى يظفروا الله بهم ، ويدللهم له ، ويحكمه فيه . أ هـ .

تنبيه :

أخرج الترمذي عن وهب بن منبه أنه قال : أصابت امرأة العزيز حاجة ، فقيل لها : لو أتيت إلى يوسف [107] لقضاك ذلك ، فاستشارت الناس ، فقالوا لها : لا تفعلي ذلك ، فإننا نخاف عليك منه ، فقالت : كلاً ، إنا لا نخاف ممن يخاف من الله عز وجل ، قال : فدخلت عليه ، فرأته في ملكه ، فقالت : الحمد لله الذي جعل الملوك عبيدا بمعصيته ، قال : فقضى لها جميع حوائجها ، ثم تزوج بها ، فوجدها بكرا ، فقال لها : أليس هذا أجمل مما أردت ، فقالت : يا نبي الله ! إني بُليت منك بأربع : كنت أنت أجمل الناس ، وكنت أنا أجمل أهل زماني ، وكنتُ بكرا ، وكان زوجي عني ، وهكذا إلى آخر القصة .

تممة :

في مناقب يوسف عليه السلام ، أخرج ابن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن وهب بن منبه أنه قال : لمَّا أتى جبريل إلى يوسف بالبشرى ، وهو في السجن ، قال له : هل تعرفني أيها الصديق ؟ فقال يوسف : إني أرى صورة طاهرة ، وروحا طيبة ، لا تشبه أرواح الخاطئين ، فقال جبريل : أنا رسول من رب العالمين ، وأنا الروح الأمين ، ثم قال له يوسف : فما الذي أدخلك في مداخل المذنبين ، وأنت أطيب الطيبين ، ورأس المقربين ، وأمين رب العالمين ، فقال له : ألم تعلم يا يوسف أن الله تعالى يُطهِّر البيوت بطهر النبيين ، وأن الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأرضين ، وأن الله تعالى قد طهَّر لك السجن وما حوله يا طاهر الطاهرين ، وابن المطهرين ، فإنما يتطهر بفضل طهرك ، وطهر آبائك الصالحين [108] المخلصين ،

¹ يوسف 101

فقال يوسف : كيف تسميني بأسماء الصديقين ، وتعديني مع المخلصين ، وأنا دخلت في مداخل المذنبين ، وتوسمني بالصالحين ، وأنا من المفسدين ، فقال له جبريل : يا يوسف ! لم يغبن قلبك الحزن ، ولا يدنس حريتك الرق ، ولم تطع سيدتك في معصية ربك ، فلذلك سماك الله تعالى بالصديق ، وعدك من المخلصين ، وأحلقك بآبائك الصالحين ، فقال : يوسف ! هل لك بعلم يعقوب ؟ قال : نعم ، وهب الله له الصبر الجميل ، وابتلاه بالحزن عليك ، فهو كظيم ، قال : فما قدر حزنه ؟ قال : قدر سبعين سنة ، قال : فماذا له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — فقال :

وَإِذَا بُلِيتَ بِنَكْبَةٍ فَاصْبِرْ لَهَا مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسْلِمًا لَا يُنْكَبُ

قوله : وَإِذَا بُلِيتَ بِنَكْبَةٍ ، أي معصية ، وقوله : فَاصْبِرْ لَهَا ، أي تجلّد ، ولا تُبدي قلقلًا ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾¹ ، وفي القاموس : الصبر نقيض الجزع ، وقال ابن جماعة : حدّ الصبر حُسن اليقين عند الجزع ، وعن علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — قال : إنّ للكلّيات نهايات ، لا بدّ لكلّ أحد إذا نكب أن ينتهي إليها ، فينبغي للعاقل إذا أصابته نكبة أن ينام لها ؛ حتى تنقضي مدتها ، فإنّ في رفعها قبل انقضاء مدتها زيادة في مكروهاها ، وقال أيضا : مَنْ أَحَبَّ الحِياةَ ، فإنه وطّن نفسه على المصائب ، وقال عمر بن [109] الخطاب ، رضي الله عنه : ما أَصَبْتُ بِمَصِيبَةٍ إِلَّا وَنَظَرْتُ أَنَّ اللَّهَ عَلَيَّ فِيهَا ثَلَاثَ نَعَمَ :

الأولى : أَنَّ اللَّهَ هُوَ عَلَيَّ ، فلم يُصِبنِي بأعظم منها ، وهو قادر على ذلك .

الثانية : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهَا فِي دُنْيَايَ ، ولم يجعلها في ديني ، وهو قادر على ذلك .

الثالثة : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْجُرُنِي بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

فيضمن الإنسان لنفسه الراحة ، فهو أصلح ، كما قال في معنى ذلك شعرا :

كُنْ حَلِيمًا إِذَا بُلِيتَ بِغِيظٍ وَصَبُورًا إِذَا أَتَتْكَ مَصِيبَةٌ

إِنَّ اللَّيَالِيَّ مِنَ الزَّمَانِ حَبَالِي مَثَقَلَاتٌ يَلْدُنْ كُلَّ عَجِيبَةٍ

وقال صلى الله عليه وسلم : [والذي نفسي بيده ، ما على الأرض من مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى ، مرض فما سواه ، إِلَّا حَطَّ عَنْهُ خَطَايَاهُ ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا]² . أخرجه الشيخان .

¹ البقرة 153 ، الأنفال 46

² صحيح البخاري 7/150 (5648) ، ونصه فيه : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا قَالَ أَجَلُ إِنِّي أُوَعِّكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ قُلْتُ ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ قَالَ أَجَلُ ذَلِكَ كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَدَى شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا] . ومثله في صحيح مسلم 8/14 (6724) .

ويؤيد هذا المعنى ما أخرجه الترمذي عن مصعب بن سعيد ، عن أبيه ، قال : قلت يا رسول الله ! أيّ الناس أشدّ بلاء ، قال : [الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل]¹ ، وقال : حسن صحيح ، .
وقوله : مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسْلِمًا ، أي نظرت ، أو علمت مُسْلِمًا — بتشديد اللام — لقضاء الله تعالى وقدره لا يُنكَبُ .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

وَإِذَا أَصَابَكَ فِي زَمَانِكَ شِدَّةٌ وَأَصَابَكَ الْخَطْبُ الْكَرِيهُ الْأَصْعَبُ

قوله : وَإِذَا أَصَابَكَ فِي زَمَانِكَ شِدَّةٌ ، أي أتتك شدة ، لا تتحملها غالباً ، عادة ، من نحو همّ ، أو غمّ ، أو حُزْنٍ فاصبر [110] لها ، لقول بعض الناس : ما بعد الشدة إلاّ الفرج ، ولأنّ الله تعالى أثنى على أهل الصبر ، كما قال بعضهم في المعنى :

وَلَسْتُ بِمَيَالٍ إِلَى جَانِبِ الْغِنَى إِذَا كَانَتِ الْعِلْيَاءُ مِنْ جَانِبِ الْفَقْرِ

وَإِنِّي لَصَابِرٌ عَلَى مَا يَنْوِبُنِي وَحَسْبُكَ أَنَّ اللَّهَ أَثْنَى عَلَى الصَّبْرِ²

وقيل: إنّ العباس — رضي الله تعالى عنه — لما توفي، حزن عليه الإمام علي — كرم الله وجهه ، ورضي عنه — ، فأنشده رجل³ بهذه الأبيات :

اصْبِرْ نَكْنُ بِكَ صَابِرِينَ فَإِنَّمَا صَبْرُ الرَّعِيَةِ عِنْدَ صَبْرِ الرَّاسِ

خَيْرٌ مِنَ الْعَبَّاسِ أَجْرُكَ بَعْدَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

وقوله : وَأَصَابَكَ الْخَطْبُ ، أي نالك الأمر الشديد ، قال في المصباح⁴ : والخطب هو الأمر الشديد ، وقوله : الْكَرِيهُ الْأَصْعَبُ ، أي المُشَقُّ .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

¹ سنن الترمذي 4/601 (2398)

² من الطويل ، لمحمد بن حازم الباهلي ، ديوانه / الموسوعة الشعرية
محمد بن حازم الباهلي (؟ - 215 هـ) : محمد بن حازم بن عمرو الباهلي بالولاء أبو جعفر. شاعر مطبوع، كثير الهجاء، لم يمدح من الخلفاء غير المأمون العباسي، ولد ونشأ في البصرة وسكن بغداد ومات فيها. قال الشافعي: كان يأتي بالمعاني التي تستغلق على غيره وأكثر شعره في القناعة ومدح التصوف وذم الحرص والطمع.

³ من الكامل ، نسباً للورغي (1122 - 1190 هـ) ، ديوانه / الموسوعة الشعرية .
وهنا يجدر التنبيه أن الشارح توفي سنة 1127 ، أي بعد مولد الورغي بخمس سنوات ، ولا يُصدق أنّ الورغي قد قال هذه القصيدة التي مطلعها :

هَلْ أَذْكُرُّكَ الْعَهْدَ بَعْدَ تَنَاسِي دِمْنٌ تَقَادِمٌ عَهْدُهَا بِالنَّاسِ

والتي عدد أبياتها (48) بيتاً ، وقد نسب ابن خلكان في وفيات الأعيان البيت الثاني ، وهو :
خير من العباس أجرك بعده والله خير منك للعباس

لإبراهيم بن موسى بن جعفر العلوي .

وقد ذكر البيهقي ابن حمدون في التذكرة الحمدونية ، والصفدي في الوافي بالوفيات ، دون عزو ، وهذان المؤلفان أسبق من الورغي بكثير .

⁴ المصباح المنير (خ ط ب) .

فَادْعُ لِرَبِّكَ إِنَّهُ أَدْنَى لِمَنْ يَدْعُوهُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَأَقْرَبُ

قوله : فَادْعُ لِرَبِّكَ إِنَّهُ أَدْنَى ... إلى تمام البيت ، أي لأنه يُجيب المضطر إذا دعاه ، فينجز له حالا ، أو يدخره له ، أو يُكفّر عنه من ذنوبه ، قال صلى الله عليه وسلم : [مَا مِنْ دَاعٍ يَدْعُو إِلَّا كَانَ بَيْنَ ثَلَاثَ : إِمَّا أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخُرَهُ لَهُ — يعني أفضل منه — عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ] ¹ . وفي البيت إشارة إلى أن الدعاء والابتهال والتضرع محمود عند الشدائد العظام وغيرها ، لكن الرضى أسلم وأغنى ، كما قال بعضهم ² في المعنى : [111]

يا أيها الراضي بأحكامنا لا بد أن تحمد عقبى الرضى
فَوْضَ إلينا وابق مستسلما فالراحة العظمى لمن فوضا

وكان سيدي علي المنوفي كثيرا ما يرتجز هذه الأبيات ، ويقول شعرا ³ :

أوليتني نعماً أبوءُ بشكرها وكفيتني كل الأمور بأسرها
فلأشكرنك ما حييت وإن أمت فلتشكرنك أعظمي في قبرها

نبذة لطيفة :

ينبغي للشخص أن يلح في الدعاء له ولغيره ، لأن الله تعالى يُحبّ الملحّين في الدعاء ، فإن قلت : هل يُدعى للمريض بالشفاء ، مع ما في المرض من كفارة الذنوب ، كما تظاهرت به الأحاديث ، لأهما يحصلان للمريض أول المرض ، وبالصبر عليه . وكان بعض عباد الله الصالحين يستغيث بهذه الاستغاثة ، وهي هذه ، يقول ⁴ :

يا من إليه المشتكى وإليه أمر الخلق عائد
يا من تُحلُّ بذكره عُقد النوائب والشدائد
يا حي يا قيوم يا صمد تنزه عن مضاد
أنت العليم بما بليت به وأنت عليه شاهد

¹ افتح الكبير 104/3 (10832) ، ونصه : [مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو بِدُعَاءٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ فَإِمَّا أَنْ يُعْجَلَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا أَنْ يُدْخَرَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَإِمَّا أَنْ يُكْفَرَ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِقَدَرٍ مَا دَعَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ أَوْ يَسْتَعِجَلَ يَقُولَ دَعَوْتُ رَبِّي فَمَا اسْتَجَابَ لِي] . وقال الألباني في السلسلة الضعيفة 9/466 : ضعيف بهذا السياق .

² من السريع ، لعبد الغني النابلسي ، ديوانه / الموسوعة الشعرية
عبد الغني النابلسي (1050 - 1143 هـ) : شاعر عالم بالدين والأدب مكثّر من التصنيف ، تصوف ولد ونشأ في دمشق ورحل إلى بغداد وعاد إلى سوريا وتنقل في فلسطين ولبنان وسافر إلى مصر والحجاز واستقر في دمشق وتوفي فيها. له مصنفات كثيرة جداً منها: (الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية) و(تعطير الأنام في تعبير الأنام) و(ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الأحاديث)، و(علم الفلاحة)، و(قلاند المرجان في عقائد أهل الإيمان)، و(ديوان الدواوين) مجموع شعره وله عدة دواوين.

³ البيتان ذكرهما الإبيشي في المستطرف ، دون عزو .
⁴ خلط المصنف في هذه الأبيات ، وما أثبتناه من ديوان النابلسي ، ومن بعض المواقع على الشبكة العنكبوتية وهو موشح ، لعبد الغني النابلسي ، ديوانه . الموسوعة الشعرية

أنت الرقيب على العباد وأنت في الملكوت واحد
 أنت المعز لمن أطاعك والمذل لكل جاحد
 أنت المنزه يابديع الخلق عن ولد و والده
 إني دعوتك والهموم جيوشها نحوي تطارد
 فرج مجودك كربتي يامن له حسن العوائد
 فخفي لطفك يستعان به على الزمن المعاند
 كن راحي فلقد أيسر من الأقارب والاباعد

[112]

نزل جبريل على يعقوب ، فشكى إليه ما هو فيه ، فقال : ألا أعلمك دعاءً إذا دعوت به
 فرج الله عنك ، فقال : قل : يا من لا يعلم كيف هو إلا هو ، يا من لا يبلغ قدره غيره ، فرج عني
 ما أنا فيه ، قال : فقلها ، فأتاه البشير حالا .

وفي رواية ابن أبي الدنيا أن جبريل قال ليعقوب : قل يا كثير الخير ، يا دائم المعروف ، قال :
 فأوحى الله إليه : لقد دعوتني بدعاء لو كان ابنك ميتين لنشرتهما لك¹ .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

كُنْ مَا اسْتَطَعْتَ عَنِ الْأَنَامِ بِمَعَزِلٍ إِنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الْوَرَى لَا يُصَحَبُ

قوله : كُنْ مَا اسْتَطَعْتَ عَنِ الْأَنَامِ بِمَعَزِلٍ ، إشارة إلى أن العزلة عن الناس أفضل ، لأنها أسلم ،
 وفيها خلاف منتشر ، قيل : إن العزلة أفضل ، ما لم يحصل منها إعجاب بالنفس ، وعليه الغزالي ،
 فراجع ، وقيل : الاختلاط بالناس ومعاشرتهم ، وتحمل أذاهم أفضل لمن قدر على ذلك ، كما
 قال بعضهم : ينبغي للشخص أن يقلل من لقاء الناس إلا لفائدة ، كما قيل :

لِقَاءُ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئاً سِوَى الْهَذْيَانِ مِنْ قِيلٍ وَقَالَ

فَأَقِلْ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا لِأَخْذِ الْعِلْمِ أَوْ إِصْلَاحِ حَالٍ²

وقوله : إِنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الْوَرَى لَا يُصَحَبُ ، أي لما في صحبته من العداوة ، ولأن كثيراً ممن
 تصحبه يحرص على إساءتك [113] ووقوعك في المهالك .

فائدة

¹ المجالسة وجواهر العلم - للدينوري رقم الحديث: 3006 ، وفيه : عَنْ شَيْخٍ مِنْ قُرَيْشٍ : أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، هَبَطَ عَلَى يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : يَا يَعْقُوبُ ! تَمْلِكُ إِلَى رَبِّكَ ، قَالَ : يَا جِبْرِيلُ ، كَيْفَ أَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْ : يَا كَثِيرَ الْخَيْرِ ، يَا دَائِمَ الْمَعْرُوفِ ! قَالَ : فَأَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهِ : لَقَدْ دَعَوْتَنِي بِدُعَاءٍ لَوْ كَانَ ابْنُكَ مَيِّتَيْنِ لَنَشَرْتُهُمَا لَكَ .

² لمحمد بن فتوح الحميدي ، انظر : ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب / الموسوعة الشعرية

لزومك في بيتك ووحدتك فيه ، خير لك من مصاحبة كثير من الورى ، كما قال سيدي عبد الله المنوفي³ ، رحمه الله تعالى .

أَنْسْتُ بِوَحْدَتِي وَلَزِمْتُ بَيْتِي فَطَابَ الْأَنْسُ لِي وَتَمَّ السُّرُورُ
فَأَذْبَنِي الزَّمَانُ فَلَا أُبَالِي هُجِرْتُ فَلَا أَزَارُ وَلَا أَزُورُ²

وقال بعضهم فيما يُقبل عند قدومه وضده :

ذهب الذين إذا رأوني مُقبلاً سُرُّوا وقالوا مرحباً بالمُقبل
وبقي الذين إذا رأوني مُقبلاً عبسوا وقالوا ليتَه لم يُقبل³

وقال بعضهم⁴ شعرا :

إِنِّي صَحَبْتُ بَنِي الزَّمَانِ فَلَمْ أَجِدْ خِلاً وَفِيّاً لِلشَّدَائِدِ أَصْطَفِي
أَيَقَنْتُ أَنَّ الْمُسْتَحِيلَ ثَلَاثَةٌ الْغُولُ وَالْعَنْقَاءُ وَالْخِلُّ الْوَفِي

غيره :

أَفِّ عَلَى هَذَا الزَّمَانِ فَإِنَّهُ زَمَانٌ عَقُوقٌ لَا زَمَانَ حَقُوقُ
فَكُلُّ رَفِيقٍ فِيهِ غَيْرٌ مُوَافِقُ وَكُلُّ صَدِيقٍ فِيهِ غَيْرٌ صَدِيقُ

غيره :

إذا لم يكن عندي نوال هجرتني وإن كنت ذا نيل فانت صديق
تواصلني ما دمت فيه موسراً وصال أخ برٍّ عليّ شفيق
وإن قلّ مالي أو أُصِبتُ بِنَكْبَةٍ فما نلتقي الا بظهر طريق [114]

وقال الشافعي ، رضي الله تعالى عنه :

خليلي اني كاتم سر صاحبي ولو كان في عرضي يسبّ ويفضح

³ عبد الله المنوفي - نقلاً عن طبقات الإمام المناوي ، هو الشيخ عبد الله المنوفي (من أهل القرن الثامن الهجري) ، صوفي ، أصل أبويه من المغرب فقدا إلى مصر ونزلا بشابور من أعمال البحيرة فولد بها صاحب الترجمة سنة ست وثمانين وستمائة فمات أبوه وعمره سبع سنوات وعند موته أوصى أمه أن لا تدع تعليمه القراءة والخط فرحلت به إلى منوف وسلمته إلى العارف سليمان المغربي الشاذلي، فرباه وأدبه وعلمه، ولم يزل يخدم الشيخ حتى مات ، وأذن له في الإقامة بمصر فأقام بالصالحية (بين القصرين) وأخذ مذهب المالكية والعربية والأصول والتصوف واللغة عن الشمس التونسي والمجد الأقفهسي وغيرهم. وقال كان مشايخي يحثونني على مطالعة كتب التصوف لاسيما الإحياء للغزالي قائلين: لا يكمل الفقيه حتى يتصوف! وكان كثيراً ما يقرأ شرح رسالة القشيري للشيخ عبدالمعطي السكندري والشفاء للقاضي عياض والمدخل لابن الحاج وقمع الحرص في الزهد والقناعة للإمام القرطبي ، ولما بلغ الأربعين، اشتغل بالتجريد والتعبد، ودعا ناظر خانقاه سعيد السعداء (أقامها أحد سلاطين الأيوبيين وأوقفها على المتعبدين من الصوفية) للإقامة بها فأبى ، وعرض عليه القيام على مدارس العلم فامتنع وخرج من الدنيا و لم يضع حجراً على حجر ولم يصنف ورقة ولا كتب على فتوى ، توفي في رمضان سنة 749 عن ثلاثة وستين عاماً. البيتان من الوافر ، وقد نسباً للخليل بن أحمد الفراهيدي ، ديوانه / الموسوعة الشعرية .

² ذكرهما ابن المرزبان في فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب ، ولم ينسبهما .

³ من الكامل ، لصفي الدين الحلي ، ديوانه / الموسوعة الشعرية .

⁴

سيظهر بين الناس فعلي وفعله
فلا ينضح القطران الا صفاته
ولو شئت جازيت المسى بفعله
وكل اناء بالذي فيه ينضح
وما نضح ماء الورد الا التفوح
ولكنني أبقيت للصلح مطر¹

غيره² :

فَلا يَغْرُرُكَ خُلَّةٌ مِّنْ ثَوَاخِي
وَكُلُّ أَخٍ يَقُولُ أَنَا وَفِيٍّ
فَمَا لَكَ عِنْدَ نَائِبَةِ خَلِيلٍ
وَلَكِنْ لَيْسَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ
سِوَى خِلٍّ لَهُ حَسَبٌ وَدِينٌ
فَذاكَ لِمَا يَقُولُ هُوَ الْفَعُولُ

غيره :

أَنْتَ فِي مَعْشَرٍ إِذَا غَبَتْ عَنْهُمْ
وَإِذَا مَا رَأَوْكَ قَالُوا جَمِيعاً
جَعَلُوا كُلَّ مَا يَزِينُكَ شِيناً
أَنْتَ مِنْ أَكْرَمِ الرِّجَالِ عَلَيْنَا³

ومن كلامه أيضا :

[115] صديق ليس ينفع يوم باس
وما يبقى الصديق بكل عصر
ولا الإخوان إلا باللباس
خبرت الدهر ملتصقا بجهدي
قريب من عدو في القياس
تنكرت البلاد علي حتى
أخالفه فأكداه التماسي
كأن أناسها ليسوا بناس

والكلام في معنى ذلك كثير منتشر ، لكن الاختصار أليق بهذه المنظومة .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — فقال :

وَاجْعَلْ جَلِيسَكَ سَيِّداً تَحْظِي بِهِ
حَبْرٌ لَّيِّبٌ عَاقِلٌ مُّتَادِّبٌ⁴

قوله : وَاجْعَلْ جَلِيسَكَ سَيِّداً تَحْظِي بِهِ ، فيه إشارة إلى أن مجالسة الشريف مطلوبة ، كما قال بعضهم في المعنى :

من عاشر الأشراف عاش مشرفاً
أو ما رايت الجلسد صار مقبلاً
ومُعَاشِرُ الْأَنْذَالِ غَيْرُ مُشْرِفٍ
بالشعر لما صار جلد المصحف

وقوله : حَبْرٌ لَّيِّبٌ عَاقِلٌ مُّتَادِّبٌ ، قال في القاموس : الحبر هو العالم ، أو الصالح ، والليبي هو العاقل ، والمتأدب هو كثير الأدب ، كما تقدم ، والأدب هو أعز شيء يوجد ، قيل : إن الشافعي

¹ نسبت هنا للشافعي ، وليست في ديوانه ، وهي في سلك الدرر للمرادي ، ومعها بيت رابع : وهو :
وقد جاء في سلك الدرر : وما ينضح الماء الا التفوح ، أما في الأصل المخطوط فكتب عجز آخر ، لم
تمكن من قراءة بعض كلماته ، بفعل الطمس عليه .

² من الوافر ، لحسان بن ثابت ، رضي الله عنه ، ديوانه / الموسوعة الشعرية .

³ من الخفيف ، لبشار بن برد ، ديوانه / الموسوعة الشعرية .

⁴ كتب : حبرا لبيبا عاقلا متادب ، وفي كثير

— رضي الله عنه — لما ذهب من عند أمه ، ليطلب العلم ، ثم أتى لها من غيبته ، فطرق عليها الباب ، فقالت : مَنْ أنت ؟ فقال : محمد بن إدريس ، فقالت له : بأي شيء جئت ؟ قال : جئت بقناطير من العلم ، وأواق من الأدب ، فقالت له : اذهب وأتني بقناطير من الأدب ، وأواق من العلم [116] ثم أنشد — رضي الله عنه — وجعل يقول :

إِنَّمَا الْعِلْمُ كُلُّهُمُ وَدَمٌ	مَا حَوَاهُ جَسَدٌ إِلَّا صَلَحَ
وَكَذَا الْآدَابُ فِي كُلِّ فَتَى	كَزَنَادٍ أَيْنَمَا حَلَّ قَدَحَ
قَلَّةُ الْآدَابِ فِي كُلِّ فَتَى	كَحُمَارٍ أَيْنَمَا رَامَ رَمَحَ
إِنْ يُوَازَنُ رَجُلٌ ذُوَ آدَبٍ	بِأُلُوفٍ مِنْ ذَوِي الْجَهْلِ رَجَحَ
هَلْ رَأَيْتُمْ مَنْ خَلَا مِنْ آدَبٍ	عَمَرَهُ يَأْخُومُ بِاللَّهِ نَجَحَ

تنبيه :

حثَّ المصنف — رحمه الله تعالى — على مجالسة العاقل ، وهو الحليم ، الذي لم يصل منه ضرر للغير بغير وجه شرعي ، والعاقل أيضا هو المتصف بالعقل ، الذي هو لغة المنع ؛ لأنه يمنع صاحبه من اقتراف الرذائل ، ويدخل صاحبه الجنة ، واختلفوا في العقل ، هل هو في الرأس ، أو في القلب ؟ والصحيح أنه في القلب ، وله شعاع متصل بالدماغ ، ونقل ذلك عن أبي حنيفة — رحمه الله تعالى — في التفضيل بين العلم والعقل ، فقال ¹ :

عِلْمُ الْعَلِيمِ وَ عَقْلُ الْعَاقِلِ اخْتَلَفَا	مَنْ ذَا الَّذِي مِنْهُمَا قَدْ أَحْرَزَ الشَّرَفَا
فَالْعَقْلُ قَالَ أَنَا أَحْرَزْتُ غَايَتَهُ	وَالْعِلْمُ قَالَ أَنَا الرَّحْمَنُ بِي عُرِفَا
فَافْصَحَ الْعِلْمُ أَفْصَاحًا وَقَالَ لَهُ	بِأَيْنَا اللَّهُ فِي فِرْقَانِهِ اتَّصَفَا
فَبَانَ لِلْعَقْلِ أَنَّ الْعِلْمَ سَيِّدَهُ	فَقَبِلَ الْعَقْلُ رَأْسَ الْعِلْمِ وَانْصَرَفَا

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — فقال :

وَاخْتَرَصَدِيقَكَ وَاصْطَفِيهِ تَفَاخُرًا² إِنَّ الْقَرِينَ إِلَى الْمُقَارَنِ يُنْسَبُ

قوله : وَاخْتَرَصَدِيقَكَ وَاصْطَفِيهِ تَفَاخُرًا ، إشارة إلى التفاخر بالصدقة ، والحث عليها ، وقلَّ أن توجد [117] ، وحقيقته هو الذي يفرح لفرحك ، ويحزن لحزنك ، وعكسه العدو ، وقوله : إِنَّ الْقَرِينَ إِلَى الْمُقَارَنِ يُنْسَبُ ، أي يُنسب إليه من الأقوال والأفعال ، كما قال بعضهم³ في معنى ذلك :

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبُ خِيَارِهِمْ	وَلَا تَصْحَبِ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدَى
عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَتَسْأَلُ عَنْ قَرِينِهِ	فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

¹ للحاتر المحاسبي .

² كتب : واحذر صديقك واصطفيه بفاخر ، وقد أبقينا ما في ديوان علي بن أبي طالب .

³ لعدي بن زيد

وقال بعضهم ، رحمه الله تعالى :

نَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةً فَتَحَيَّرْتُ دَقَائِقُ فِكْرِي فِي بَدِيعِ صِفَاتِهِ
فَأَوْحَى إِلَيْهِ الْوَهْمُ أَنَّي أُحِبُّهُ فَأَثَّرَ ذَاكَ الْوَهْمُ فِي وَجَنَاتِهِ¹

والكلام في هذا الخلل على الشوق كثير ، فلنذكر شيئاً منه ، فنقول :

يا قرة العين إن الشوق أقلقني إلى لقاء فهل للوصل ميعاد
قصدي بخلي لا يكون الشمل مفترقا والوصل يزداد والأيام أعياد
عسى الذي من قضى بالبعد يجمعنا إنَّ الكريم لمن يرجوه جواد

وقال بعضهم :

كنتم الهوى في القلب حتى حجبته فباحث به العينان والقلب مُطرق
ومن كان ذا عشق وإن كان جاحداً فإنَّ الهوى في عينه حين ينطق

وقال بعضهم :

ومن العجائب عند أرباب الهوى² قرب الحبيب ولا إليه وصول
كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وقال بعضهم :

ظَفَرْتُمْ بِكَيْتَمَانِ اللِّسَانِ فَمَنْ لَكُمْ بِكَيْتَمَانِ عَيْنٍ دَمْعُهَا الدَّهْرَ يَذْرِفُ
[118] حَمَلْتُ جِبَالَ الْحُبِّ فَوْقِي وَإِنِّي لَأَعْجُزُ عَنْ حَمَلِ الْقَمِيصِ وَأَضْعُفُ
بكيت دما حتى لقد قال قائل أهذا الفتى من جفن عينيه يعرف

وقال بعضهم :

الوجه منك على الصواب يدلني وإذا ضللت فإنه يهديني
وتميتني الأحاظ منك بنظرة وإذا أردت بنظرة تُحييني
وكذاك من مرض الجفون بليتي وإذا مرضت فإنها تشفيني

وقال بعضهم :

وقائلة ما بال جسمك لا يرى سَقِيماً وَأَجْسَامُ الْمُحِبِّينَ تَسْقَمُ
فقلت لها قلبي بحبك لم يَبُحْ لجسمي فجسمي بالهوى لَيْسَ يَعْلَمُ

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

واحذر مؤاخاة الديء لأئها تُعْدي كما يُعدي السليم الأجرُ

¹ من الطويل ، للقاضي الفاضل ، ديوانه / الموسوعة الشعرية .
² كتب : أمر ما يلقي الحبيب من العنا ، وما أثبتناه من الحاشية

قوله : واحذر مؤاخاة الديني ، أشار المصنف رحمه الله تعالى إلى ترك مؤاخاة الديني ، والإجماع عليه ، والديني هو الذي يتعاطى الأمور الدنيئة ، وقوله : لأنها تُعدي ، نسب الإعداء إليها على سبيل المجاز ، والسليم في هذا البيت مفعول مقدم ، والأجرب فاعل مؤخر ، لضرورة النظم .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

وَدَعَ الْكَذُوبَ فَلَا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا إِنَّ الْكَذُوبَ لَشَيْنٌ خِلٍ يُصْحَبُ

قوله : ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً ، أي اترك مصاحبة الكذوب في الأقوال والأفعال ، وعن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال على المنبر : [إياكم والكذب ، فإنه أعلى الفجور ، وهما في النار]¹ .

وعن مالك بن دينار² ، رضي الله عنه ، قال : الصدق والكذب [119] يعتركان في القلب ، فأيهما غلب أخرج صاحبه .

وعن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : [ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مَنَافِقٌ ، وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَحَجَّ وَاعْتَمَرَ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ : مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اتُّمِّنَ خَانَ]³ .
وقال بعضهم ، رحمه الله :

**وما شيءٌ إذا فُكِّرَتْ فيه بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه وأبعد بالبهاء من الرجال**

تنبيه :

¹ جامع الأحاديث 7/227 (6183) .

² مالك بن دينار (000 - 131 هـ) : مالك بن دينار البصري ، أبو يحيى : من رواة الحديث . كان ورعاً ، يأكل من كسبه ، ويكتب المصاحب بالاجرة . توفي في البصرة . الأعلام 5/261

³ مجمع الزوائد 1/300 (412)

يجوز الكذب في مواضع¹ : في الجهاد ، لتفريق الكفار ، وفيما يتجاهر به الناس ، وفي دفع ظالم عن مال له أو لغيره ، أو عرض كذلك ، ومنها في جبر خاطر المرأة ، أو ولد ، ومنها في ستر معصية منه ، أو من غيره ، ومنها إصلاح ذات البين ، انتهى ، قليوبي .
وقوله : لَشَيْنٌ خَلٍ يُصَحَّبُ ، أي إنه لخليل شين ، فلا يكون في صحبته ، ولا في مجالسته خير ، كما قال بعضهم :

وصاحب أخذته خليلا فلا أرى غدره ببالي
فلم يخص إلا القبيح مني كأنه كاتب الشمال

وقال بعضهم :

ولي صاحب لما رأي مقبلا ترحز لي من مكره عن مكانه
وسالني بالود ما دمت جالسا ولما افترقنا عصني بلسانه

ولبعضهم :

ولي صاحب كالزلزال ما مر لي صفاؤه في الشك كاليقين
فلم يخص إلا الجميل مني كأنه كاتب اليمين

ولبعضهم

إذا تحققت من خل ودادا فزره ولا تخف من ملال
وكن كالشمس تطلع كل يوم ولا تكن في زيارة الهلال

[120]

تنبيه :

الكذب حرام إجماعا ، ما لم يكن لضرورة شرعية ، كما علم مما تقدم ، وأمّا الكذب على الأنبياء ، فهو أشد حرمة من الكذب على غيرهم .
ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

¹ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : عن أم كلثوم بنت عقبة قالت : [ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته .. والمرأة تحدث زوجها] رواة مسلم وعليه يجوز الكذب في ثلاث حالات :
الحالة الأولى : الكذب على العدو في حالة حربه على المسلمين بقصد تضليله وإيقاعه في فخ من فخاخ المسلمين ، ولكن لا يدخل في هذا جواز الكذب عليه بتأمينه أو معاهدته ثم الغدر به فهذا لا يجوز.

الحالة الثانية : أن يتوسط الإنسان للإصلاح بين فريقين متخاصمين ثم لا يجد وسيلة للإصلاح بينهم أنجع من أن يركب مركب الكذب ولكن على مقدار الضرورة ، أما إذا تسنى له أن يوري بأقواله دون أن يكذب فهو خير له وهو الأمر الذي يحبه الله ورسوله .
الحالة الثالثة : وهي حديث الرجل زوجته وحديث المرأة لزوجها في الأمور التي تشد أو اصر الوفاق والمودة بينهما فهنا يتسامح بشئ من الكذب لتوثيق روابط الأسرة.

وَذَرِ الْحَقُودَ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ فَالْحَقْدُ بَاقٍ فِي الصُّدُورِ مُغَيَّبٌ

قوله : وَذَرِ الْحَقُودَ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ، أي طال عليه الزمان ، فطبعه لا يتغير ، وقوله : فَالْحَقْدُ بَاقٍ فِي الصُّدُورِ مُغَيَّبٌ ، لا اطلاع لأحد عليه ، والحقْد — بكسر الحاء — وهو الانطواء على العداوة والبغضاء ، قيل : وعلامته غالبا صفار الوجه من غير علة ، فينبغي لصاحبه أَنْ يُعَالَجَ نفسه ، ويطهر باطنه منه ، ومن غيره .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَاحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ فَالْمَرْءُ يَسْلَمُ بِاللِّسَانِ وَيُعْطَبُ

قوله : وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَاحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ ، أي لأنه أعظم أعوان الشيطان ، فإنه لامؤونة في تحركه وإرساله ، لأن زلاته من أقبح الزلات ، وآفاته من أقبح الآفات ، لصدور المكروه عنه ، قال بعضهم في اللسان : اللسان كالسبع ، إن أطلقته افترسك ، فقيده بحبالك الوثيقة ؛ لأن جرحه لا يلتئم ، بخلاف جرح السنان ، كما قال بعضهم :

جراحات السنان لها التام ولا يلتام ما جرح اللسان¹

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ]² .

وقوله : فَالْمَرْءُ يَسْلَمُ بِاللِّسَانِ وَيُعْطَبُ ، أي يسلم إن تكلم خيرا ، ويعطب إن تكلم شرا ، وروى الطبراني خبرا : [لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَحْذَرُ مِنْ لِسَانِهِ]³ [121] . وفي خبر آخر [إِنَّكَ لَنْ تَزَالَ سَالِمًا مَا سَكَتَ ، فَإِنْ تَكَلَّمْتَ كَتَبَ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ]⁴ .

¹ لشاعر الحكمة الشاعر يعقوب الحمودني ، والأبيات بتمامها :

وقد يرجى لجرح السيف برء ولا برء لما جرح اللسان
جراحات السنان لها التام ولا يلتام ما جرح اللسان
وجرح السيف تدمله فيبرى ويبقى الدهر ما جرح اللسان

² المسند الجامع 1/346 (210) ، والحديث بتمامه : [عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ] .

³ لم أجده بهذا اللفظ في متون الحديث ، ولا في كتب التخریج والزوائد ، وما وجدته في البخاري 1/9 : قَالَ ابْنُ عُمرَ لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فِي الصُّدْرِ .

⁴ لم أجده في متون الحديث ، ولا في كتب التخریج والزوائد .

فالمطلوب من الشخص أن يُحسن لفظه مع كل أحد ، أو يصمت ، لأنّ عثرات الإنسان من اللسان أكثر من غيره ، فقد أنشد ابن السكيت¹ في إصلاح المنطق هذين البيتين ، فقال :

يصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعرثته في القول ترمي برأسه وعثرته بالرجل تبرا على مهل

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

وَزِنِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ ثَرثَارَةً فِي كُلِّ نَادٍ تَخْطُبُ

قوله : وَزِنِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ ... الخ ، إشارة إلى أن الشخص إذا لم يزن الكلام بميزان الشرع ، وإلا كان الصمت في حقه أولى ، لأن كثرة الكلام في غير ذكر الله ، أو حالة ضرورية مهضمة لقدره عند الله ، وقال بعضهم في معنى ذلك :

الصمت زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مهذارا
ما إن ندمت على سكوتك مرة فلتندمن على السكوت مرارا

فيستحب للشخص الصمت ؛ حتى عن المباح ، فرمما إذى إلى محرم ، أو مكروه ، وعلى فرض أنه لا يؤدي إليهما ، ففيه ضياع الوقت فيما لا يعني ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [مِنْ حَسَنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ]² ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَمْرَيْنِ خَفِيفَيْنِ لَمْ يَلِقَ اللَّهُ بِمَثَلِهِمَا : الصَّمْتُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ]³.

وقال لقمان لابنه : لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب ، وقال ابن المبارك : معناه لو كان الكلام بطاعة الله من فضة ، لكان السكوت عن معصية الله من ذهب ، وهو صريح في أنّ الكفّ عن المعصية أفضل من عمل الطاعة ، وقال أبو علي الدقاق⁴ : مَنْ سَكَتَ عَنِ الْحَقِّ ، فَهُوَ شَيْطَانٌ آخَرَسٌ ، وسئل الإمام [122] مالك رحمه الله تعالى ، قبل موته بثلاثة أيام ، فقال له

¹ ابن السكيت (186 - 244 هـ) : يعقوب بن إسحاق، أبو يوسف، ابن السكيت: إمام في اللغة والادب. أصله من خوزستان (بين البصرة وفارس) تعلم ببغداد. واتصل بالمتوكل العباسي، فعهد إليه بتأديب أولاده، وجعله في عداد ندمانه، ثم قتله، لسبب مجهول، قيل: سألته عن ابنه المعتز والمؤيد: أهما أحب إليه أم الحسن والحسين؟ فقال ابن السكيت: والله إن قنبرا خادما علي خير منك ومن ابنك! فأمر الاتراك فداوسوا بطنه، أو سلوا لسانه، وحمل إلى داره فمات (ببغداد). من كتبه: إصلاح المنطق - قال الميرد: ما رأيت للبغداديين كتابا أحسن منه، و الالفاظ ، و الاضداد ، و القلب والابدال ، و شروح دواوين عدد من الشعراء ، و الاجناس ، و سرقات الشعراء ، و الحشرات ، و الامثال ، و شرح المعطقات ، و غريب القرآن ، و النبات والشجر ، و ، النوادر ، و الوحوش ، و معاني الشعر " صغير وكبير . الاعلام 8/190

² المسند الجامع 329/11 (3436)

³ لم أجده بهذا اللفظ في كتب المتون ، ولا في كتب التخریج والزوائد ، والذي وجدته في الفتح الكبير 429/1 (4742) : [أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَيْسَرِ الْعِبَادَةِ وَأَهْوَنِهَا عَلَى الْبَدَنِ الصَّمْتُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ] (ابن أبي الدنيا في الصمت) عن صفوان بن سليم مرسلأ .

⁴ هو الشيخ أبو علي الحسن بن علي النيسابوري ، المعروف بالدقاق ، كان إمام وقته ، وهو تلميذ أبي موسى بن نصر الرازي ، وأستأذ القشيري ، وأبي سعيد البردعي ، توفي سنة 406 هـ .

رجل : عظمي يا شيخ الإسلام ، فقال : ألا أدلك على علم العلماء ، وحكمة الحكماء ، وطب الأطباء في ثلاث كلمات ؟ قال له : بلى ، قال : إذا سُئِلت عن شيء ، ولم تعلم ، فقل : لا أعلم ، فذلك علم العلماء ، وإذا جلست على مائدة ؛ لتأكل منها ، فقم ونفسك تشتهيها ، فذلك طب الأطباء ، وإذا جلست بين قوم ، فكن أسكتهم ، فإن تكلموا سلّمت من خطاياهم ، وإن سكثوا أصابوا درجتك ، وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾¹ ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم² : [وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟]³.

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

وَالسِّرِّ فَإِكْتُمُهُ وَلَا تَنْطِقْ بِهِ إِنَّ الزَّجَاجَةَ كَسْرُهَا لَا يُشْعَبُ

قوله : **وَالسِّرِّ فَإِكْتُمُهُ ... الخ** ، أشار المصنف إلى أن كتمان السر من الأمور العظام ، لأن في إفشائه الضرر الكثير ، وأنه يعود على صاحبه بالنقص ، وقوله : **إِنَّ الزَّجَاجَةَ كَسْرُهَا لَا يُشْعَبُ** ، بمعنى لا يُجبر ، أي لا يلتزم ، وقال بعضهم

أحرص على حفظ القلوب من الأذى فصفارها بعد التنافر يعسر
إِنَّ القلوب إذا تافرت ودّها مثل الزجاجة كسرّها لا يجبر

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

وَتَوَقَّ مِنْ غَدْرِ النِّسَاءِ خِيَانَةً فَجَمِيعُهُنَّ مَكَائِدُ لَكَ تُنْصَبُ

قوله : **وَتَوَقَّ مِنْ غَدْرِ النِّسَاءِ خِيَانَةً** ، إشارة إلى أن الشخص لا يأمن كيد النساء ، لأن الله تعالى ، وصف كيد النساء بالعظيم ، فقال عزّ من قائل : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾⁴ ، كما قال ابن عروس⁵ رحمه الله :

¹ الأحزاب 70

² قوله : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . سقط من الأصل المخطوط .

³ سنن ابن ماجه 5/116 (3973) ، ولفظه فيه : عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يَدْخُلُنِي الْجَنَّةَ ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ ، قَالَ : [لَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيمًا ، وَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ عَلَى مَنْ يَسِرُّهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتَقِيُمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ ثُمَّ أَلَا أَذْكَكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ ؟ الصَّوْمُ جَنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ النَّارَ الْمَاءُ ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، ثُمَّ قَرَأَ بِتَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ حَتَّى بَلَغَ { جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . ثُمَّ قَالَ : أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ ، وَعَمُودِهِ ، وَدُرُوءِ سَنَامِهِ ؟ الْجِهَادُ ثُمَّ قَالَ : أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ ؟ قُلْتُ : بَلَى ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ ، فَقَالَ : تَكْفُ عَنْكَ هَذَا قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ قَالَ : تَكَلَّمَ أَمَّا يَا مُعَاذُ هَلْ يُكِبُّ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟] .

⁴ يوسف 28

⁵ ابن عروس : هو شاعر ذاع صيته بعد وفاته بقرون غير أن العديد من المفكرين يقولون ان ابن عروس هو شخصية وهمية ولكن البعض يؤكد أن شعره والذي يتمتع بقالب معين يسمى مربعات أو بالتحديد تسمى

وفيه من تعدى الدار وتبني غرف مع بناني
وفيه كما فصل فخر تفوز لها فخراني

وقال :

وإن قلت خيان خيان ما يحفظوا لك أمانة
وإن غدروا تدمع الأعيان حيلة وخيانة

وقال :

رأيت الهم في الدنيا كثيرا وأكثر ما يكون من النساء
ولا تأمن زمانك قط أنثى ولو قالت نزلت من السماء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ما خلقت [123] على أمتي فتنة أشد من النساء]¹ .
فاحذر منهن كل الحذر ، وقوله : فَجَمِيعُهُنَّ مَكَايِدُ لَكَ تُنْصَبُ ، أي تُنْصَبُ لَكَ ، كما يُنْصَبُ
الفتح للمصيد .

وحكي عن بعضهم أنه كان إذا طلب منه الدعاء ، يقول للطالب : الله يكفيك من
تعاشره أربعين سنة ، ويضرك بعدها ، يعني بذلك زوجته ؛ حتى أطعمته السم ، فعميت بسبب
ذلك .

وحكي أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب ، يشكو إليه خلق زوجته ، واستطالها عليه
بالكلام ، فوقف الرجل بباب عمر ينتظره ، فسمع زوجته تستطيل عليه بلسانها ، وهو ساكت ،
ولم يردّ عليها ، فانصرف الرجل ، وهو يقول : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته ،
فكيف حالي أنا ؟ فخرج عمر ، فرآه موليا ، فناده : ما حاجتك أيها الرجل ؟ وقفت ببابنا ، ولم
تسأل عن شيء ، فقال : يا أمير المؤمنين ! جئت أشكو إليك من خلق زوجتي ، واستطالها

مربعات بن عروس نسبة إليه. غير أن تعريفا بابن عروس هو الشاعر الذي عاش في العصر العثماني وكتب
بالعامية ما وصل إلينا وتداوله كحكم وأقوال مأثورة .

¹ لم أجده بهذا اللفظ ، والذي في صحيح البخاري 7/11 (5096) : عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) .
(فتنة) سببا للفتنة ، وذلك بتكليف الرجال من النفقة ما لا يطيق أحيانا ، وبإغرائهم وإمالتهم عن الحق ، إذا
خرجوا واختلطوا بالرجال ، لا سيما إذ كن سافرات متبرجات . (أضر) أكثر ضررا وأشد فسادا لدينهم ودنياهم .
* قال ابن حجر في الشرح :

وفي الحديث أن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن ، ويشهد له قوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من
النساء) فجعلهن من حب الشهوات ، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك ، ويقع في
المشاهدة حب الرجل ولد من امرأته التي هي عنده أكثر من حبه ولده من غيرها ، ومن أمثلة ذلك قصة
النعمان بن بشير في الهبة ، وقد قال بعض الحكماء : النساء شر كلهن وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهن
ومع أنها ناقصة العقل والدين تحمل الرجل على تعاطي ما فيه نقص العقل والدين كشغله عن طلب أمور
الدين وحمله على التهالك على طلب الدنيا وذلك أشد الفساد وقد أخرج مسلم من حديث أبي سعيد في أثناء
حديث " واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء .

بالكلام ، فسمعت زوجتك في حقلك كذلك ، فرجعت ، وقلت : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته ، فكيف حالي أنا ؟ فقال عمر رضي الله عنه : يا هذا ! إني أتحمّلها لحقوق لها عليّ ، لأنها طبّاخة لطعامي، خبازة لخبزي، غسالة لثيابي ، مرضعة لأولادي ، وليس ذلك بواجب عليها ، ومع ذلك يسكن لها قلبي عن الحرام ، فأنا أتحمّلها لذلك ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ! وكذلك زوجتي أتحمّلها ، فقال عمر : تحمّلها يا أخي ، فإنها مدة يسيرة .
فانظروا يا إخواني الحُسن في هذا الخلق العظيم .
ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

لَا تَأْمَنِ الْأُنْثَى زَمَانِكَ كُلَّهُ يَوْمًا وَلَوْ حَلَفَتْ يَمِينًا تَكْذِبُ

قوله : لَا تَأْمَنِ الْأُنْثَى ، أي ولو قالت نزلت من السماء في هذه الساعة ، وقوله : وَلَوْ حَلَفَتْ يَمِينًا تَكْذِبُ ، لأنها تفر في يمينها ، وتحلف حقيقة كاذبة ، لشؤم لؤمها ، كما قال بعضهم : يتمنعن وهنّ راغبات ، ويحلفن وهنّ كاذبات¹ .
ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

¹ جاء في كتاب التذكرة للقرطبي (ومن كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أيها الناس لا تطيعوا للنساء أمراً ولا تأمنوهن على مال ولا تدعوهن يدبرن أمر عشير ، فإنهن إن تركن و ما يردن أفسدن الملك و عصين المالك و جدناهن لا دين لهن في خلواتهن و لا ورع لهن عند شهواتهن اللذة بهن يسيرة و الحيرة بهن كثيرة ، فأما صوالحهن ففاجرات و أما طوالحهن فعاشرات و أما المعصومات فهن المعدومات فهن ثلاث خصال من اليهود : يتظلمن و هن ظالمات ، و يحلفن و هن كاذبات ، و يتمنعن و هن راغبات ، فاستعيذوا بالله من شرارهن و كونوا على حذر من خيارهن و السلام) .
وهذا الكلام لا تصح نسبته إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وذلك لدليلين اثنين : الأول : أنه ليس له أصل إسنادي في كتب السنة والآثار ، ولا يعرف له موضع في كتب أهل السنة ، اللهم إلا أن القرطبي نقله بنصه في كتاب " التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة " (ص/818) من طبعة دار المنهاج ، وقال المحقق الدكتور الصادق : بحثت عن هذا الأثر عن علي رضي الله عنه ولم أجده ، وما أظن أن يثبت مثل هذا عنه رضي الله عنه ، لما فيه من المبالغة في التشنيع على النساء على وجه لا يليق " انتهى. وعن الإمام القرطبي نقله السخاوي في " المقاصد الحسنة " (ص/458) والعجلوني في " كشف الخفاء " (2/63) ولم يحكما فيه بشيء.

الثاني : فيه مبالغة ظاهرة في التشنيع على جنس النساء ، والتحذير منهن ، ولو كان التحذير مقتصرًا على شرار النساء لكان مقبولا ، أما أن يشمل التحذير والتشنيع الصالحات من النساء فهذا أمر مرفوض لا يقبل ، وليس في الشريعة ما يؤيده ، ولا يصدر عن مثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو العالم بقول الله تعالى : (فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ) النساء/34 ، وبقوله عز وجل : (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِمِينَ وَالصَّانِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) الأحزاب/35 . وكل ما ورد من آثار في بعض كتب التاريخ والأدب تحت على ترك طاعة النساء ، ومخالفة أمرهن ، وذنم الصالحات فيهن ، وتخوين الطاهرات منهن : فهي آثار مردودة لا تثبت ، وإنما يؤمن بها الرافضة في تراثهم المزور ، فقد عقد الكليني في كتابه " الكافي " (5/518) بابا بعنوان " باب في ترك طاعتهم " ، وسرد فيه مجموعة من الآثار التي تشنع على النساء في هذا الشأن ، وأما نحن فنقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ) رواه أبو داود (رقم/236) ، فالنساء فيهن العبادات المؤمنات اللاتي شاركن في بناء التاريخ الإسلامي العظيم ، فلا يقبل التعميم الذي يرد في بعض الآثار عن بعض السلف وفيه مبالغة التشنيع على جنس النساء . والله أعلم . الإسلام : سؤال وجواب / على الشبكة العنكبوتية .

تُغري بطيبِ حَدِيثِهَا وَكَلَامِهَا وَإِذَا سَطَّتْ فَهِيَ الصَّغِيرُ الْأَشْطَبُ

[124] فهي كالحية التي لا تواطن غالبا ، قوله : وَإِذَا سَطَّتْ فَهِيَ الصَّغِيرُ الْأَشْطَبُ ، أي فهي كالسيف القاطع ، لسرعة تنفرها ، وخبث طباعها ، لما احتوت عليه من الشيطانية ، وقلة الأدب غالبا منهم .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

وَأَلْقَ عَدُوَّكَ بِالتَّحِيَّةِ وَلِتَكُنْ مِنْهُ زَمَانُكَ خَائِفًا تَتَرَقَّبُ

قوله : وَأَلْقَ عَدُوَّكَ بِالتَّحِيَّةِ ، يعني بالسلام ونحوه ، لأنه تحية المسلمين ، فقد كان من ملوك الأرض مَنْ يُحيي رعيته بتحية مخصوصة ، فقد كانت تحية العرب بالسلام ، وتحية الأكاسرة بالسجود ، وتحية الفرس بوضع الأيدي على الصدور ، وتحية الجوس بتنكيس الرأس .
وقوله : وَلِتَكُنْ مِنْهُ زَمَانُكَ خَائِفًا تَتَرَقَّبُ ، أي احترز منه ، أي في زمانك وأوقاتك ، وأظهر له البسر والتواضع ، وعدم الاعتراض فيما يفعله ، أي تصبر ، ما لم يكن مُحَرَّمًا ، ولا قدرة لك على إزالته ، فيجب عليك الإنكار بقلبك ، وذلك أضعف الإيمان ، كما قال الشافعي رضي الله عنه :

واجعل يقينك سوء الظن تنج به
من عاش مستيقظا قلت مصائبه
وَأَلْقَ الْعَدُوَّ بَوَجْهِ ضَا حَكَ طَلَقَ
وانصب له في الحشا جيشا تحاربه
إِنْ رَقَّ لَكَ يَوْمًا عِنْدَ نَازِلَةٍ
فقد حسب لك شيئا لست حاسبه¹

ومما ينبغي للشخص إذا جنى عليه أحد باليد، أو باللسان، بسبب أو غيره ، فإنه يتحمله ، وإن كان قادرا على مكافأته ، وإن اعتذر إليه بعد جنايته عليه ، فإنه يقبل ، ويصفح عن ذنبه ، كما قيل² :

قِيلَ لِي قَدْ أَسَاءَ إِلَيْكَ فَلَانُ
وَمُقَامُ الْفَتَى عَلَى الذُّلِّ عَارُ
قُلْتُ قَدْ جَاءَنَا فَأَحْدَثَ عُذْرًا
وَدِيَّةُ الذَّنْبِ عِنْدَنَا الْاِعْتِذَارُ .

وقال بعضهم شعرا :

إذا اعتذر المُسيء إليك يوما
تجاوز عن مساوئة الكثيرة
فإن الشافعي روى حديثا
يأسناد صحيح عن مغيرة

¹ لم أجد هذه الأبيات في ديوان الشافعي ، والبيت الأخير غير مستقيم الوزن ، فقد ورد على النحو التالي :

وإن رَقَّ لك يوما عند نازلة
فقد حسب لك شيئا ما أنت حاسبه

وكثيرا ما أورد المصنف أبياتا غير مستقيمة الوزن ، فأصلحنا بعضها ، قدر الإمكان ، وبقي بعضها ، والعهددة على الشارح ، وربما كان هذا من عمل الناسخ .

² لأبي الحسن بن أبي العباس البیهقي ، انظر : آداب الصحبة ، للسلمي . رقم الحديث 99 ، ص 11

عن المختار أن الله يعفو بعفو واحد ألفي كبيرة

ومن ذلك قول الشاعر :

أقبل معاذيرَ من يأتيكَ معذراً
فلقد أسركَ من يرضيكَ ظاهراً
إن برَّ عندكَ فيما قال : أو فجراً .
ولقد أطاعك من يعصيكَ مستترا .

غيره :

[125] إذا سبني نذل تزايدت رفعة
ولو لم تكن نفسي عليّ عزيزة
وما العيب إلا أن تجدي أعاتبه
لمكنتها من كل نذل تجاوبه

ولبعضهم

أحاسفه يُبادرني بشتيم
يزيدُ سفاهةً فأزيدُ حِلماً
فأكره أن أكونَ له مُجيباً
كعودٍ زادَهُ الإحراقُ طيباً

وقال بعضهم¹ :

لا تُرجِعنَّ إليّ السَّفيهَ خطابهُ
فمَتى تُحرِّكُهُ تُحرِّكُ جِيفَةً
إلا جَوَابَ تَحِيَّةٍ حَيَّاكَهَا
تَزْدَادُ تَنَنًا إِنْ أَرَدْتَ حِرَاكَهَا .

وقال بعضهم :

عِدَاتِي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ
هُمُ بَحَثُوا عَنْ زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا
فَلَا أَذْهَبَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعَادِيَا
وَهُمْ نَافَسُونِي فَارْتَقَيْتُ الْمَعَالِيَا

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

وَاحْذَرُهُ يَوْمًا إِنْ أَتَى لَكَ بِاسِمًا
فَاللَّيْتُ يَبْدُو نَابُهُ إِذِ يَغْضَبُ

قوله : وَاحْذَرُهُ يَوْمًا إِنْ أَتَى لَكَ بِاسِمًا ، أي ضاحكا ، كما قال بعضهم :

أبناء جنسك فاجتنب لا تركزن إليهم
فيهم خداع ومكر لو طلعت عليهم .

وقوله : فَالَلَّيْتُ يَبْدُو نَابُهُ إِذِ يَغْضَبُ ، أي يظهر نابه كالمبتسم عند غضبه كالسبع ، وهذا البيتان أشار فيهما إلى أن الشخص لا يخاصم عدوه ، ولا يحقره في غيبته ، لئلا ينقص عليه ، وإن كان حقيرا فقد قال بعضهم في المعنى :

لا تحقرن صغيراً في محاسبة
إنَّ البعوضة تدمي مقلة الأسدِ

ثم أشار المصنف بقوله :

وَإِذَا الصَّدِيقَ رَأَيْتَهُ مُتَمَلِّقًا
فَهُوَ الْعَدُوُّ وَحَقُّهُ يُتَجَنَّبُ

¹ أوردهما ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم ، الحديث رقم 23

قوله : وَإِذَا الصَّدِيقَ رَأَيْتَهُ مُتَمَلِّقًا ، أي نظرتَه ، أو علمت به بخلاف ما يظهر منه ، فهو أحق بالتجنب ، لعدم أمن الضرر ، والحذر منه بتأكد الندم ، وقوله : فَهُوَ الْعَدُوُّ ، أي الذي يفرح لحزنك ، ويجزن لفرحك ، فهو أحق بالتجنب في أقواله وأفعاله ، لأنه ربما انقلب الحال ، كأن العدو أعلم بالمضرة التي وقعت [126] من قديم الزمان ، فيباكيك ، فاحتفظ من صدّ عدوك ، وقدم الحرص منه في كل الأمور ، وإياك أن تودعه سرّك ، فيجاهرك به في وقت يُحصي الذنوب عليك أيام الصداقة والعداوة .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

لَا خَيْرَ فِي وُدِّ امْرِئٍ مُتَمَلِّقٍ حُلُوَ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ

قوله : لَا خَيْرَ فِي وُدِّ امْرِئٍ مُتَمَلِّقٍ ، أي لا خير في وُدِّ شخص يتملق بإظهار التواضع والاحترام لصاحبه بين يديه ، ويسبّه إذا كان من خلفه ، كما قال بعضهم :

تعبنا بالذي تلقاه لونا واحداً أجرى لأحكام والمودة يضبط
ودع الذي متلوننا بطباعة ملعون ذو الوجين وهو مفرط

وقوله : حُلُوَ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ ، أي بسبب العداوة الكامنة في بطنه ، تتوقد كالنار ، وكما قال بعضهم :

وصاحب في الودّ خوان فمجازٍ سوءه سوءاً بإحسان
يلقاك بالبشرى وفي قلبه ضربان من غش ومن عدوان

ثم أشار المصنف بقوله :

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً وَيَرَوِّغُ مِنْكَ كَمَا يَرَوِّغُ الثَّعْلَبُ

قوله : يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً ، أي يتكلم معك بكلام ذي حلاوة ، ليتوصل به إلى غرضه معك ، وقوله : وَيَرَوِّغُ مِنْكَ كَمَا يَرَوِّغُ الثَّعْلَبُ ، أي في هديه عن طريق الاستقامة ، لشدة مكروهه ، وخداعه ، كما قال بعضهم :

فكم خليل لك خالته لا ترك الله له واضحة
كلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة¹

ثم أشار المصنف بقوله :

يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَاثِقٌ وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ الْعَقْرَبُ

¹ من السريع ، للإمام علي كرم الله وجهه .

قوله : يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَاثِقٌ ، أي أينما واجهك يحلف أنه متمسك بك ، فلا تقر به ، لأنه ذو وجهين ، وقوله : وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ الْعَقْرَبُ [127] أي دويبة صغيرة ، تقتل الفيل والبعر ، وأنه لا نبأ بلسعها ، كما قال عمارة اليمني¹ ، رحمه الله :

إذا لم يسعك الزمان فحاربته وباعد إذا لم يتسع بالأقارب
ولا تحتقر كيد الضعيف فربما تموت الأفاعي من سموم العقارب

ومن ذلك قول الشاعر :

لا تأمنن فتى اسكنت مهجته غيظا وترعم ان الغيظ قد زالا
إن الافاعي وإن لانت طبائعها تبدي انعطافا وتخفي السم قتالا.

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

وَإِذَا رَأَيْتَ الرِّزْقَ ضَاقَ بِلَدَةٍ وَخَشِيتَ فِيهَا أَنْ يَضِيقَ الْمَكْسَبُ

قوله : وَإِذَا رَأَيْتَ الرِّزْقَ ضَاقَ بِلَدَةٍ ، أي أن الشخص إذا ضاقت عليه المعيشة بمكان ، يُسن له أن يرحل منه في طلب الرزق ، ولا يذل وجهه لغيره ، لصون عرضه ، كما قال بعضهم :

لا تطلبن من ابن آدم حاجة إن ابن آدم خير من منون
وارغب إلى مولاك فيما عنده فالخير أجمع عنده مخزون
ومتى كنت في ضيقة فاصبر لها² فستنجلي والوجه منك مصون
وابشر بخير عاجل يأتي به من هو يقل للشيء كن فيكون

غيره :

لا تسألن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يُسأل يغضب
فاسأل الهك ما استطعت فإنه عظيم العفو والخير عنده أوهب

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

فَارْحَلْ فَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ الْفَلَا طُولاً وَعَرْضاً شَرْقُهَا وَالْمَغْرِبُ

¹ عمارة اليمني (؟ - 569 هـ) : عمارة بن علي بن زيدان الحكمي المنحجي اليمني ، أبو محمد ، نجم الدين . مؤرخ ثقة ، وشاعر فقيه أديب ، من أهل اليمن ، ولد في تهامة ورحل إلى زبيد سنة 531 هـ ، وقدم مصر برسالة من القاسم بن هشام (أمير مكة) إلى الفائز الفاطمي سنة 550 في وزارة (طلّاح بن رزيك) فأحسن الفاطميون إليه وبالغوا في إكرامه ، فأقام عندهم ، ومدحهم . ولم يزل موالياً لهم حتى دالت دولتهم وملك السلطان (صلاح الدين) الديار المصرية ، فرثاهم عمارة واتفق مع سبعة من أعيان المصريين على الفتك بصلاح الدين ، فعلم بهم فقبض عليهم وصلبهم بالقاهرة ، وعمارّة في جملتهم . له تصانيف ، منها (أخبار اليمن) ، و(أخبار الوزراء المصريين) ، و(المفيد في أخبار زبيد) ، و(ديوان شعر) كبير .
² هكذا ورد هذا الشطر ، وهو غير مستقيم الوزن .

قوله : فَأَرْحَلْ فَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، أي سافر في طلب الرزق ، أي تحصيله ، وتفريجه المهموم ، كما ورد في الحديث : [سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتُرْزَقُوا]¹ .

وفي رواية [تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا]² ، وفي هذه الأحاديث إشارة إلى أن السفر للكسب مطلوب ، وأنه [128] لا ينافي التوكل .

قال ابن السبكي : والمختار أن ذلك يختلف باختلاف الناس ، فمن كان في توكله عالياً عن التخطي في ضيق رزقه ، ولا يطيع نفسه إلى ما في أيدي الناس ، فالتوكل في حقه أرجح ، لما فيه من الضرر ، والمجاهدة للنفس ، والانقطاع ، انتهى . جواهر .

وورد في الحديث : [لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خِمَاصاً ، وتروح بَطَاناً]³ ، قيل : الغدو المسير من أول النهار ، والرواح : من الزوال إلى آخر النهار ، وقيل : الغدو : الذهاب ، والرواح : الإياب ، أهـ . تائية السبكي للسنةوري .

تنبيه :

ينبغي للشخص أن يجتهد في تحصيل الرزق، ولو تغرب عن الأوطان ، كما قيل في المعنى ، عن علي كرم الله وجهه :

ما في المقام لذي عقلٍ وذِي أدبٍ	من راحةٍ فدع الأوطانَ واغترِبْ
إني رأيتُ وقوفَ الماءِ يُفسدُهُ	إن سَاحَ طابَ وإن لم يَجِرْ لم يَطِبْ
والشمسُ لو وقفت في الفلكِ دائمةً	لملأها الناسُ من عُجمٍ ومن عَرَبٍ
والبدْرُ لولا أقول منه ما نظرت	إليه في كل حين عين مرتقب
سافر تجد عوضاً عمّن تُفارقُهُ	وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
فالأسدُ لولا فراق الأرض ما افترست	والسهمُ لولا فراق القوس لم يُصب
والتيْرُ كالتبنِ مُلقى في أماكنه	والعودُ في أرضه نوعٌ من الحطب
فإن تغربَ هذا عزٌّ مطلبُهُ	وإن تغربَ ذاك عزٌّ كالذهب

غيره :

فالكحل نوع من الأحجار منطرح	بين الحجارة ملقى على الطرق
ارحل بنفسك من أرض تُهان بها	ولا تكن على فرقة الأحزاب في حرق
[129] فالعبر الخام روث في موطنه	وفي التغرب محمول على العنق

¹ الفتح الكبير 2/141 (6778).

² الفتح الكبير 2/141 (6779).

³ تخريج أحاديث الإحياء - أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (1)4/127

لَمَّا تَغْرِبَ حَازَ الْفَضْلُ أَجْمَعَهُ فَصَارَ يَحْمِلُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْحَدَقِ

ومن ذلك قول الشاعر :

وَنَفْسُكَ فُزَّ بِهَا إِنْ خَفْتَ ضَيْمًا وَخَلَّ الدَّارَ تَنْعِي مِنْ بِنَاهَا
فَإِنَّكَ وَاجِدٌ أَرْضًا بِأَرْضِ وَنَفْسُكَ لَمْ تَجِدْ نَفْسًا سِوَاهَا
عَجِبْتُ لِمَنْ يَقِيمُ بَدَارَ ذُلِّ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ فِضَاهَا

ومن كلام الإمام الشافعي ، رضي الله عنه :

تَغَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرَّجُ هَمٌّ وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَةٌ مَاجِدِ
وَإِنْ قِيلَ فِي الْأَسْفَارِ ذُلٌّ وَمِحْنَةٌ وَقَطَعَ لِقَائِي وَاكْتِسَابُ الشَّدَائِدِ
فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ بَدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدِ

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

فَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي فَالْنُصْحُ أَغْلَى مَا يُبَاغُ وَيُوهَبُ

قوله : فَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي ، إشارة إلى التعرّض بقول النصيحة وعدمه ، وتقديم الكلام مبسوطا ، لكن علي من يقبل النصيحة ، لانقلاب أهل هذا الزمان القائل فيه : [القابض على دينه كالقابض على الجمر]¹ ، وقلّ مَنْ تؤثر فيه النصيحة ، لكن المطلوب بذها ، أفادت أم لا ، ولا تُضَرُّ لها .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

خُذْهَا إِلَيْكَ قَصِيدَةً مَنْظُومَةً جَاءَتْ كَنْظَمِ الدَّرِّ بَلْ هِيَ أَعْجَبُ

قوله : خُذْهَا إِلَيْكَ قَصِيدَةً مَنْظُومَةً ، أي تناول هذه القصيدة إليك بنظر ، وقوله : جاءت ، أي وردت ، وقوله : كَنْظَمِ الدَّرِّ بَلْ هِيَ أَعْجَبُ ، أي أعجب من الدرّ المنظوم في سلك من الذهب ، لنفاستها الباهرة ، التي تسلب عقول المطلعين عليها ، إذا فهموا معناها بعقل وافر .

ثم أشار المصنف بقوله :

حِكْمٌ وَآدَابٌ وَجُلُّ مَوَاعِظٍ [130] أَمْثَالُهَا لِذَوِي الْبَصَائِرِ تُكْتَبُ

¹ أخرجه الترمذي في جامعه من طريق اسماعيل بن موسى الفزاري عن عمر بن شاعر عن أنس رضي الله عنه مرفوعا : يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر ، وقيل : إنّ هذا الحديث لا يصح ، وعلمته عمر بن شاعر.

قوله : حِكْمٌ وَآدَابٌ وَجُلُّ مَوَاعِظٍ ، أي لما اشتملت عليه من المواعظ والحكم ، والسير ، والآثار ، والأخبار ، والعجائب ، والغرائب ، والنوادر ، والحكايات المضحكات ، والروايات ، والأمثال ، والفصائد ، والأشعار ، وما أشبه ذلك .

وقوله : أمثالها ، تقدّم من معاني القصيدة ، وقوله : لِذَوِي الْبَصَائِرِ تُكْتَبُ ، أي لا تُقرأ ، ولا تكتب إلا على أهل البصائر ، الذين إذا ثلّيت عليهم ، عرفوا معانيها ، وفهموا رموزها .
ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

فَاصْغِرْ لَوْعَظٍ قَصِيدَةٍ أَوْ لَا كَهَا طَوْذُ الْعُلُومِ الشَّامِخَاتِ الْأَهْيَبُ

قوله : فَاصْغِرْ لَوْعَظٍ قَصِيدَةٍ أَوْ لَا كَهَا ، أي اجمع حواسك الظاهرة والباطنة ، لقبول وعظ هذه القصيدة ، وما اشتملت عليه من النصائح ، وقوله : طَوْذُ الْعُلُومِ الشَّامِخَاتِ الْأَهْيَبُ ، أي جبل من جبال العلم ، والشامخات : العاليات .

ثم أشار المصنف — رحمه الله تعالى — بقوله :

أَعْنِي عَلِيًّا وَابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ مَن نَالَهُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ الْأَنْسَبُ¹
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ رَبِّي دَائِمًا مَا طَلَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ وَيَغْرِبُ²

قوله : أَعْنِي عَلِيًّا وَابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ ، صريح كلامه هذا أنها لعلّي كرم الله وجهه ، وشاع عند العامة أنها له ، ويُحتمل أنه قالها نثرا ، ونظمها غيره ، ونسبها إليه ، لكونه دلّ عليها أولاً .
قوله : مَن نَالَهُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ الْأَنْسَبُ ، أي خصّ بالشرف ، وأعلى النسب صلى الله عليه وسلم ، فهو محمد بن عبد الله [131] بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. انتهى النسب الشريف ، كما قال بعضهم :

نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نَوْرًا وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عُمُودًا
مَا فِيهِ إِلَّا سَيِّدٌ مِنْ سَيِّدِ حَازِ الْمَكَارِمِ وَالتَّقَى وَالْجُودَا.

تم الشرح المبارك بحمد الله³

¹ كتب : من خص بالشرف الرفيع الأنسب . وعليه تصبح قافية البيت مكسورة الباء ، بما يخالف نظم القصيدة وما أثبتناه هو الرواية المشهورة .

² كتب : ما طلع ، وبه لا يستقيم الوزن ، ولم أجد هذا البيت في كل ما وقفت عليه من المصادر ، والذي وجدته قوله :

يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ ** عَدَدَ الْخَلَائِقِ حَصْرُهَا لَا يُحْسَبُ

³ بقيت بعض الأبيات ، وردت في ديوان الإمام عليّ كرم الله وجهه ، لم يعرض لها الشارح ، وهي :

وعونه وحسن توفيقه
وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله
وصحبه
وسلم

لَا تَأْمَنِ الْأُنْثَى حَيَاتَكَ إِنَّهَا
إِنَّ الْغَنَى مِنَ الرِّجَالِ مُكْرَمٌ
وَذَرِ الْحَسُودَ وَلَوْ صَفَا لَكَ مَرَّةً
وَاحِرْصَ عَلَى حِفْظِ الْقُلُوبِ مِنَ الْأَذَى
إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَنَافَرَتْ وَدَّهَا
وَكَذَلِكَ سِرُّ الْمَرْءِ إِنْ لَمْ يَطْوِهِ
وَيُظَلِّكُ مَلْهُوفًا يَرُومُ تَحِيُّلاً
يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ
كَالْأَفْعَوَانِ يُرَاعُ مِنْهُ الْأَنْيَبُ
وَتَرَاهُ يُرْجَى مَا لَدَيْهِ وَيُرْهَبُ
أَبْعَدُهُ عَنْ رُؤْيَاكَ لَا يُسْتَجَلَبُ
فَرَجْوُهَا بَعْدَ التَّنَافُرِ يَصْعَبُ
شِبْهَ الزُّجَاجَةِ كَسَرُهَا لَا يُشْعَبُ
نَشْرَتُهُ أَلْسِنَةً تَزِيدُ وَتَكْذِبُ
وَالرِّزْقُ لَيْسَ بِحِيلَةٍ يُسْتَجَلَبُ
عَدَدَ الْخَلَائِقِ حَصْرُهَا لَا يُحْسَبُ